الإسلام فطرة الخلق وشريعة الوجود

د. محمد محمود متولي

الحمد لله الذي وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فقد حفزني على كتابة هذا البحث حق ديني علي، وهو أن أسهم في توضيح بعض الحقائق التي تتعلق به؛ ليكون ذلك بيانا للناس وهدى وموعظة، وقد قسمته إلى أربعة فصول.

ذكرت في الأول منها أقوال المفسرين فيما يتعلق بآية الفطرة، وبعض آيات التقدير والهداية؛ وموقف يلمس القارىء فيه ما لمسته من عمق الفكرة لدى مفسرينا وعلمائنا عن الفطرة وقوانينها، ورعاية الله وحراسته للكون وللإنسان وللدين، وأن القرآن كونه المسطور، والكون كونه المنظور، وهما لايختلفان أبدا.

والفصل الثاني: تحت عنوان الإسلام هو الفطرة، وفيه تحدثت عن ماهية الفطرة، وأنها هي الإسلام، وأن القرآن وجه الناس للتعرف على سنن الفطرة في النبات والإنسان والحيوان، وأن العلم المادي يؤكد وجود الله - عز وجل - كما تحدثت عن الفطر النقية، والفطر الملتاثة، وقارنت بين القرآن والتوراة والإنجيل والعلم؛ منتهيا إلى أن القرآن وحده هو كتاب الفطرة.

فأما الفصل الثالث: فقد تحدثت فيه عن بعض قوانين الفطرة في الكون والحياة والإنسان من خلال القرآن، وكيف تكتشف قوانين الفطرة، ثم كيف تحكم المفطورات بقوانينها، وأن القادر الخالق هو الذي يفعل، وليس الصدفة... وكيف خلق الله في الجسم قوى الدفاع عن فطرته، ثم تحدثت عن بعض الأجهزة الإنسانية، وكيف تدل على خالقها - عز وجل - ، وكذلك بعض الحيوانات، وكيف تدلها فطرتها على ما تحفظ به نوعها.

وفي الفصل الرابع: تحدثت عن أن الاسلام شريعة الوجود من أزله إلى أبده، وأن الكون بكل ما فيه يعرف ربه، وكيف أن الإسلام متفق مع الديانات الصحيحة وقت نزولها.

ثم تحدثت عن تعدد الزوجات والطلاق بين دعوات المستغربين وحقيقة الإسلام وعودة الغربيين إليها، كما تحدثت عن تحريم الخمور والربا ومواقف الإسلام.

وأرجو أن أكون قد وفقت نتجلية ما أردته، فإن كان ذلك فمن الله، وإن كان غيره فمن نفسي «وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت ، وإليه أنيب».

الفصل الأول
من آيات الفطرة والتقدير والهداية

لابد لمن يريد التحدث عن أن الاسلام دين الفطرة، أن يلم بمعنى الفطرة في كتب اللغة، وبما قاله المفسرون فيُ شرح آية الروم عن الفطرة، وإقامة الوجه لله، والدين الحنيف، وأنه لاتبديل لخلق الله، وأن ذلك الدين هو الدين القيم، فبدون الإلمام بكتب اللغة، وكتب التفسير، يبقى المعنى غامضا في عقل القاريء أو الكاتب عن فطرية الدين الإسلامي.

ويعتبر صاحب قاموس لسان العرب ممن توسعوا في بيان معنى الفطرة ومشتقاتها. يقول: «فطر الشيء يفطره فطرا، فانفطر، وفطره: شقه، وتفطر الشيء: تشقق، والفطر: الشق، وجمعه فطور، وفي التنزيل العزيز: «ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ»[1] وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾[2]. أي انشقت وفي الحديث الشريف: قام رسول الله - ﷺ - حتى تفطرت قدماه..[3]. والفطرة: الابتداع والاختراع، وفي التنزيل: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ»[4]. والفطرة: الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه: «ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾»[5].

والفطرة: ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به، ومنه قوله -ﷺ-:

---

(١) الملك آية رقم ٣.
(٢) الانفطار آية رقم ١.
(٣) متفق عليه رقم ١٧٩٥ من اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان. جمعه المرحوم محمد فؤاد عبد الباقي - المطبعة المصرية بالكويت.
(٤) فاطر - ١ -.
(٥) الشعراء: ٧٨.

«ما من مولود إلا ويولد على الفطرة»[1]. والمقصود بها: السعادة أو الشقاوة، حسبما يصنعه به أبواه.

وفطرة ثانية: هي الكلمة التي يصير بها العبد مسلما، وهي: الشهادتان، فتلك فطرة الدين، وقيل: فطر كل إنسان على معرفته بأن الله رب كل شيء وخالقه.

والفطرة: الحالة. كالجلسة، والركبة، أي الهيئة.

والمعنى أنه: يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيء لقبول الدين، فلو ترك عليها، لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها، وإنما يعدل عنها لآفة بشرية»[2].

ومما ذكره ابن منظور يتضح لنا أن لفظ الفطرة يدور معناه على:

١ - الشق.

٢ - الابتداع والاختراع،

٣ - خلق المولود في بطن أمه، فهي خاصة بالإنسان.

٤ - ما فطر الله عليه الخلق من معرفته.

٥ - كلمة التوحيد.

٦ - الهيئة: ومعناه أن الله خلق الناس على هيأة مخالفة لغيرهم، وطبع مهيء لقبول الدين.

والمعاني الأولى تدور على الخلقة البدنية، والمعاني الأخيرة تدور حول الدين، وهما المعنيان الرئيسان للفطرة، وكل معانيها ومشتقاتها ترجع إليهما، والآيات القرآنية كلها تدور حولهما.

---

(١) ما من مولود متفق عليه رقم ١٧٠٢ من اللؤلؤ والمرجان.

(٢) لسان العرب لابن منظور مجلد ٥ من ٥٥: ٥٩ بتصرف.

يقول الإمام بن كثير: «والفطرة: هي الخلقة أو الدين، ولا منافاة بين القولين، فالله خلق الخلق، ثم أرسل إليهم الرسل، مكملاً خلقهم بدينه»[1].

ويقول الإمام القرطبي: «وسميت الفطرة دينا، لأن الناس يخلقون له. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[2].

واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعددة، منها: الإسلام، وهو قول أبي هريرة، وابن شهاب، وعامة السلف.

وقال آخرون: الفطرة هي: البداءة التي ابتدأهم الله عليها. أي ما فطر عليه خلقه، من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة، وإلى ما يصيرون إليه بعد البلوغ»[3].

ويعلل الأستاذ سيد قطب الجمع بين فطرة الإنسان وعدم التبديل لخلق الله بقوله رحمه الله: «.. فطرة الله التي فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق الله» وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين، وكلاهما من صنع الله، وهما موافقان لناموس الوجود، وكل منهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه، والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين، ليحكمه، ويصرفه، ويطب له من المرض، ويقومه من الانحراف، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

والفطرة ثابتة، والدين ثابت. (لاتبديل لخلق الله).

فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة، لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة، فطرة البشر، وفطرة الوجود[4].

وهناك من أشار بوضوح إلى أن وضع الأشياء في مواضعها، وإيصال

---

(١) مختصر تفسير بن كثير جـ ٣ ص ٥٤ بتصرف.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) تفسير القرطبي جـ١٤ ص ١٢٤ دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٤) في ظلال القرآن: جـ ٢١ ص ٤١: ٤٢ ط خامسة ١٩٦٧، دار إحياء التراث الإسلامي.

الأسباب إلى مسبباتها هو فطرة عقلية، ومخالفته تؤدي إلى فساد الحياة، لأنها بذلك تكون قد ضادت الفطرة، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: «ولم أر من أتقن الإفصاح عن معنى كون الإسلام هو الفطرة. فأبينه: بأن الفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، والفطرة التي تخص نوع الإنسان هي: ما خلقه الله عليه جسداً وعقلا، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولته أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسدية، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية، ومحاولة استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقلية، وهو المسمى في علم الاستدلال بفساد الوضع، وجزمنا بأن ما نبصره من الأشياء - وهو حقائق ثابتة في الوجود ونفس الأمر - فطرة عقلية، وإنكار السوفسطائية ثبوت المحسوسات - في نفس الأمر - خلاف الفطرة العقلية[1].

تفسير آية الفطرة

أعني بها الآية رقم ثلاثين من سورة الروم وهي قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

جرت عادة المفسرين أن يذكروا بين يدي تفسيرهم للآية أو السورة المناسبة بينها وبين ما قبلها، وقد جرى على ذلك بعضهم في القديم وفي الحديث، وقامت علوم ودراسات حول علاقة الآيات والسور بعضها ببعض، لبيان وحدة السورة القرآنية، وأن كل آية وضعت بجانب الأخرى لداع اقتضي أن توضع بجوارها، ولبيان وحدة القرآن الكريم، وأن كل سورة وضعت تالية لسابقتها لمناسبة اقتضت ذلك، وهي أمور طيبة يستنبطها العلماء من علاقات الآيات والسور بعضها ببعض، وإن كان معظمها اجتهادات لم يأت بها نص.

---

(١) التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

ومن المتفق عليه أن ترتيب الآيات والسور توقيفي من الله تعالى، وأن ذلك الترتيب تم بأمر من النبي - صلى الله عليه وسلم.

المناسبة بين آية الفطرة وما قبلها:

ذكر العلامة الآلوسي في تفسيره لهذه الآية المناسبة بينها وبين ما قبلها، فقال: «قال العلامة الطيبي: إنه تعالى عقيب ما عدد الآيات والشواهد الدالة على الوحدانية، ونفي الشرك، وإثبات القول بالمعاد، وضرب - سبحانه - المثل، قال - سبحانه: **﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾** أراد جل شأنه أن يسلي حبيبه - صلوات الله وسلامه عليه - ، ويوطنه على اليأس من إيمانهم فذكر: «بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم»، فاهتم بخاصة نفسك، ومن اتبعك، وأقم وجهك... ومنه يعلم حال الفاء في قوله (فأقم)[1].

ويشير إلى ما أشار إليه الآلوسي الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره، فيقول: (والأمر مستعمل في طلب الدوام، والمقصود: أن لاتهتم بإعراضهم، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾[2]، وقوله ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[3]. وقوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾[4].فالمعنى: فأقم وجهك للدين،والمؤمنون معك، كما يؤذن به قوله - تعالى - بعده: **﴿منيبين إليه واتقوه﴾** بصيغة الجمع)[5]. والمعنى أدم إقامة وجهك.

* ويلمح عالم مسلم ما لمحه الآلوسي ولكنه يستنبط منه فائدة أخرى تضم إلى ما استنبطه الآلوسي والطاهر بن عاشور، وهي متعلقة بالفطرة بمعنى الخلقة، وتوجيه الله أبصار خلقه ليتأملوها، ويتعرفوا على قوانينها، فتزيدهم

---

(١) الآلوسي: جـ ٢١ ص ٣٩، دار الفكر - بيروت ١٩٧٨م.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٢٠.

(٣) يونس: ١١٣.

(٤) يوسف: ١٠٨.

(٥) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: جـ ٢١ ص ٨٨، ٨٩، ط الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

هدى، فيقول: (قد جاءت هذه الآية بعد آيات كلها كونية، تتعلق بظواهر طبيعية، لايدرسها، ولايبحثها ويكشف أسرارها إلا العلم التجريبي الحديث، وهي الآيات: « فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ »[1].

تسع آيات جمع الله فيها بين العمل والدين، ومزجها مزجا مدهشا، صير به العلم جزءاً من الدين، وتلك ميزة الإسلام وحده، وإحدى الآيات نص في أن العلم بمعناه الحديث جزء من الدين، ألا وهي قوله تعالى: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض،، واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين**﴾.

والبين هنا أن العالمين هم دارسو السموات والأرض، العارفون أسرار خلقها، الفاهمون لأجناس الشعوب، وأسرار اختلافاتهم أفراداً أو جماعات، في اللغة واللون، وهؤلاء هم العلماء بالعلم الحديث، فتأمل كيف التقت آية الفطرة بإجمالها مع الآيات التسع في تفصيلها في ربط الفطرة والخلق بالدين[2].

---

(١) سورة الروم الآيات من ١٧ : ٢٥.

(٢) د. محمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم: ٢٣ : ٢٤ بتصرف، ط دار الكتب الحديثة.

لغويات الآية وبلاغتها:

«فأقم وجهك» الفاء فاء الفصيحة، وقد أفصحت عن شرط مقدر دخلت هي على جوابه والتقدير؛ إذا عنمت أحوال المعرضين عن دلائل الحق، فأقم وجهك للدين. والمقصود من الأمر دوام القيام، لا بدايته، لأنه كان مقيماً عليه وقت نزول الآية، فمثله كمثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ....﴾[1] «وأقم» من أقام العود، أو قومه إذا عدله.. والمراد: الأمر بالإقبال على دين الإسلام، والاستقامة والثبات عليه، والاهتمام بترتيب أسبابه، على أن الكلام تمثيل لذلك، فإن من اهتم بشيء محسوس بالبصر عقد إليه طرفه، وسدد إليه نظره، وأقبل عليه بوجهه، غير ملتفت عنه، وقال بعض الأجلة: إن إقامة الوجه للشيء كناية عن كمال الاهتمام به...[2]

والوجه يعبر به عن الذات، باعتباره أشرف ما في الإنسان، وفيه أهم حواسه، ولذلك لاينبغي السجود إلا لله سبحانه وتعالى، وفي القرآن: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ»[3]. وفيه: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ»[4]. أي ذاته جلّ وعلا، وعلى لسان إبراهيم. عليه السلام: «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا[5]» أي ملكته ذاتي، وملأت بعقيدته كياني. وإقامة الوجه في الآية: «تقويمه وتعديله باتجاهه، وقبالة نظره، غير ملتفت يمينا ولا شمالاً». وهو تمثيل لحالة الإقبال على الشيء، والتمحض للشغل به، بحالة قصر النظر على الشيء قبالته، غير ملتفت يمنه ولايسرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[6].

---

(١) آية رقم: ١ من سورة الأحزاب.
(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: جـ ٢١. ص ٨٨ بتصرف.
(٣) الرحمن ٢٦.
(٤) القصص: ٨٨
(٥) الأنعام ٩٠.
(٦) الأعراف : ٢٩.

وقوله: ﴿فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾. أي أعطيته لله. وذلك معنى التمحيص لعبادة الله، وألا يلتف إلى معبود غيره»[1].

وقد يكون المراد بالوجه مايراه الإنسان في أمر ما من الأمور، فيتوجه إليه، أو يكون مما يوجهه الشرع إليه فيتوجه بإخلاص، يقول تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[2] قال بعضهم في الآية: الوجه: ما يتوجه إليه، وعمل الإنسان. ودينه: مما يتوجه إليه الإنسان لتسديده، وإقامته، فالمعنى: أخلص دينك، وسدد عملك، مائلا إليه عن جميع الأديان المحرفة المنسوخة[3]. وهو نفس ما قاله الماوردي: (وجهك: قصدك، أو دينك، أو عملك)[4].

(للدين) كلمة دين تدور معانيها على الجزاء والخضوع، ومجموعة التعاليم الشرعية، فيقال: دانه: أخضعه. ودان به: اتخذه دينا. وفيها معنى الخضوع، ودان له: إذا خضع، سواء أكان خضوعه عن حرية أم عن جبر.

والمقصود به في الآية: دين معين. فأل فيه للعهد، وهو دين الإسلام الذي دان به النبي الأكرم ومن معه.

وكلمة دين واردة في لقرآن كثيراً، فمنها: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»[5]. أي الإسلام ومنها: « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »[6] ودينهم معروف، ودينه كذلك. ومنها: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»[7] أي الجزاء، وهو يوم القيامة. ومنه: «أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾»[8] والدين يطلق على الشريعة، فيقال: شريعة

(١) التحرير والتنوير جـ ٢١ ص ٨٩.
(٢) البقرة: ١٤٨.
(٣) الشيخ إسماعيل حقي البرسوي: تفسير روح البيان: مجلد ٧ ص ٣٠: ٣٢، بتصرف دار إحياء التراث بيروت.
(٤) تفسير الماروردي: جـ ٥ ٢٦. نشر وزارة الأوقاف الكويتية.
(٥) المائدة آية ٣.
(٦) الكافرون آية ٦.
(٧) الفاتحة آية ٤.
(٨) الصافات آية ٥٣.

محمد، أي دينه، وقد تكون الشريعة جزءاً من الدين، وهو العبادات والمعاملات، كما يقال: تطبيق الشريعة الإسلامية، فيقصد منه القوانين الإسلامية، وقد يقال: ملة. على أساس أنها تملى أي تكتب، أو تملى من الله على عباده، أي: تفرض.

و«حنيفا» (قال في القاموس: الحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام، الثابت عليه، وفي المفردات: الحنف: ميل عن الضلال إلى الاستقامة، وتحنف فلان: تحرى طريق الاستقامة، وسمت العرب كل من اختتن أو حج حنيفا، تنبيها على أنه على دين إبراهيم عليه السلام، ومعناه في الآية: «فأقم وجهك للدين حنيفا». أي حال كونك مائلا عن سائر الأديان، مستقيما عليه، لاترجع عنه إلى غيره)[1].

وأما موقع «حنيفا» من الاعراب فقد، جوز الآلوسي: (أن يكون منصوبا على الحال من الضمير في «فأقم»، أو من الدين، وجوز أبو حيان كونه حالا من الوجه)[2].

والقولان الأولان متقاربان في المعنى. فإذا قلت: فأقم أنت وجهك للدين حنيفا، فتوجه حنيفا على أنها حال من الفاعل، أو على أنها حال من المفعول، فالمؤدي واحد تقريبا، وهو عدم ميله عن الدين، وأما تعلقه بالدين فهو دليل على استقامة الدين، وهذا دليل على صحته، وأنه من عند الله سبحانه وتعالى. والأقوال الثلاثة متلازمة، فأتباع الدين المستقيم مستقيمون.

و«حنيفا» يجوز أن يكون حالا من الضمير المستتر في فعل «أقم»، فيكون حالا للنبي - ﷺ -، كما كان وصفا لإبراهيم - عليه السلام - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[3].

وهذا هو الأظهر في تفسيره، ويجوز كونه حالا من الدين، على مافسره به الزجاج، فيكون استعارة، بتشبيه الدين برجل حنيف في خلوه من شوائب الشرك... وحنيف: صيغة مبالغة في الاتصاف بالحنف، وهو الميل. وغلب

---

(١) المرجع السابق: ص ٣٠: ٣٢، بتصرف.
(٢) الآلوسي: جـ ٢١ ص ٣٩.
(٣) النحل آية: ١٢٠.

استعمال هذا الوصف في الميل عن الباطل، أي العدول عنه بالتوجه إلى الحق، أي عادلا، ومنقطعا عن الشرك، كقوله تعالى: ﴿**قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين**﴾[1].

«فطرة الله» (الفطرة: الخلقة، وزنا ومعنى. كقولهم: صدقة الفطرة، أي الخلقة، والمراد بالفطرة هنا: القابلية للتوحيد، من غير إنكار له، ولا إباء عنه).

قال الراغب: فطرة الله ما فطر، أي أبدع، وركز في الناس، من قوتهم على معرفة الإيمان. وانتصار بها على الإغراء، أي الزموا فطرة الله، والخطاب للكل في «فطرة الله» والإفراد في «أقم» لما أن الرسول إمام الأمة، فأمره مستتبع لأمرهم، والمراد بلزومها: الجريان على موجبها، وعدم الإخلال باتباع الشيطان والهوى»[2]. ويفهم من التفسير السابق: أن الفطرة هي: الخلقة والدين. وهو ما يذكره الماوردي في تفسيره بوضوح فيقول: («فطرة الله» فيها تأويلان.

أحدهما: صنعة الله التي خلق الناس عليها، قاله الطبري.

والثاني: دين الله الذي فطر خلقه عليه، قاله ابن عباس والضحاك والكلبي، يريد به الإسلام. وقد قال كعب بن مالك:

إن تقتلونا فدين الله فطرتنا ... والقتل في الحق عند الله تفضيل[3]

فأما موقعها من الإعراب فيقول الآلوسي: (ويجوز أن ينصب «فطرة» بإضمار يعني، أو يكون مفعولا مطلقا، دل عليه ما بعده، أي: فطركم فطرة الله، ولا يجوز عمل فطر المذكور بعده فيه، لأنه صفته، ويصح أن يكون بدلا من حنيفا)[4].

---

(١) التحرير والتنوير: جـ ٢١ ص ٨٩.
(٢) تفسير البرسوي المجلد: ٧ من ٣٠: ٣٢، بتصرف.
(٣) تفسير الماوردي: جـ ٣ ص ٢٦٦.
(٤) الآلوسي: جـ٢١ ص٣٩.

فأما نوع البدل الذي أشار إليه الآلوسي فيوضحه ما يلي: «فطرة الله» بدل من (حنيفا)، بدل اشتمال، فهو في معنى الحال من الدين، وهو حال ثانية، فالحال تتعدد كالخبر بدون عطف، وهذا أحسن، لأنه أصرح في إفادة اختصاص هذا الدين بوصفين هما: التبرؤ من الشرك، وموافقته الفطرة. فيفيد أنه دين سمح سهل، لا عنت فيه، فالتوحيد هو الفطرة، والإشراك تبديل لها، وهي اسم هيئة من الفطر، ومعناها: أنهم جبلوا على هذه الصورة أو الديانة متمكنين منها، وحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿**التي فطر الناس عليها**﴾ - وهو (على) - يفيد تمكن الصفة بالموصوف، تمكنا يشبه تمكّن المعتلي على شيء. ونظيره قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[1].

ومعنى فطر الناس على الدين الحنيف: أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين، وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم، غير مجافية لها، غير نائين عنه، ولا منكرين له، مثل إثبات الوحدانية لله، لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح، حتى لو ترك الإنسان وتفكيره ولم يلقن اعتقادا ضالا، لاهتدى إلى التوحيد بفطرته، قال ابن عطية: والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة «أي الفطرة»: أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الإنسان، والتي هي معدة ومهيئة لأن يميز بها مصنوعات الله، ويستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه... فوصف الإسلام بأنه فطرة الله معناه: أن الاعتقاد فيه جار على مقتضى الفطرة العقلية، وأما تشريعاته وتفاريعه فهي إما أمور فطرية أيضا، أي جارية على وفق ما يدركه العقل، ويشهد به، وإما أن تكون لصلاحه مما لا ينافي فطرته.

وقوانين المعاملات فيه راجعة إلى ما تشهد به الفطرة، لأن طلب المصالح من الفطرة، وقد تكون الشواهد على ذلك واضحة، وقد تكون خفية[2].

---

(١) البقرة: ٥.

(٢) التحرير والتنوير: ج٢١ ص٩٠، ٩١ بتصرف.

﴿التي فطر الناس عليها﴾

تأكيد، لأن الفطرة من صنع الله، فهي إن كانت دينا أو خلقة لا يقدر عليها إلا الله، فإذا ما كانت بالمعنى الواسع الشامل للخلق كانت دليلا على فطرة الله خالق المخلوقين جميعا.

«وهي صفة لفطرة الله مؤكدة لوجوب الامتثال للأمر، فإن خلق الله الناس على فطرته - التي هي عبارة عن قبولهم للحق، وتمكنهم من إدراكه، وعن ملة الإسلام - من موجبات لزومها، والتمسك بها قطعا، فإنهم لو خُلّوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها، وما اختاروا عليها دينا آخر، ومن غوى منهم فبإغواء الشياطين. . .»[1].

وهذه الجملة تدل على أن الضلال طارىء على الفطرة، وأن الإيمان أصيل في طبع بني آدم، وأنهم خلقوا حنفاء، كما ورد في الحديث الشريف، فالناس خلقوا سالمي العقول على أصل التوحيد، كما تفيد أن قوانين الفطرة في الإنسان والمخلوقات كلها لا يقدر عليها إلا الله، فهو مسبب الأسباب، وموصلها إلى إنتاج مسبباتها، وهو الفاعل على الحقيقة. والإنسان فاعل على المجاز.

﴿لا تبديل لخلق الله﴾:

يقول الماوردي في تفسيره: «لا تبديل لخلق الله» فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: لا تبديل لدين الله. قاله مجاهد وقتادة.

الثاني: لا تغيير لخلق الله، من البهائم: أن تخصي فحولها. قاله عمر بن الخطاب، وابن عباس، وعكرمة.

الثالث: لا تبديل لخالق غير الله، فيخلق كخلق الله، لأنه وحده الخالق الذي يخلق.

---

(١) روح البيان المجلد السابع: ٣٠، ٣٢.

ويصح فيها وجه رابع: أنه لا يشقى من خَلَقَه سعيدا، ولا يسعد من خَلَقَ شقيا[1].

ويصح أن تكون تعليلا لأمر الخلق بوجوب الامتثال لله سبحانه وتعالى، وكأنه قال: الزموا فطرة الله، لأنه لا طاقة لأحد بتبديلها، وأين قوة الخلق من قوة الخالق؟ وعظمتهم من عظمته؟ ففطرته فيها نجاتهم، وفي اتباع هواهم وشياطينهم هلاكهم.

وهي مبينة لحال ما سبقها، من أنه دين حنيف، لا تغيير فيه ولا تبديل، ما امتثله الإنسان وهو خلاف ما كانت الشياطين تصنعه بأهل الجاهلية من تغييرهم لآذان الأنعام، وجعلهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، أو ما حرمه بنو إسرائيل على أنفسهم، مما لم يحرمه الله عليهم، وعاتبهم القرآن على ذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[2] وقوله: ﴿* كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾[3].

وهي تفيد عدم تغيير الفطرة التي فطر الله الخلق والناس عليها، فإن تدخل السماء يصلح، وتدخل الإنسان من الممكن أن يفسد، ولا يصلح.

﴿ذلك الدين القيم﴾:

الإشارة هنا نظير الإشارة في ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[4] تدل على تعظيم المشار إليه، فإذا كان المشار إليه مطلوبا منا أن نتوجه إليه بكل ما نملك من طاقات وحواس وموصوفا بأنه فطرة الله التي خلق الله مخلوقاته عليها، وأنه لا طاقة لأحد بتبديلها، فهذا دليل على عظمته.

---

(١) تفسير الماوردي: ج٣ ص٢٦٦.
(٢) الأنعام آية ١٤٥.
(٣) آل عمران الآية ٩٣.
(٤) البقرة الآية ٢.

وكما وصف بأنه حنيف وهي صيغة مبالغة، وصف هنا بأنه «الدين القيم».

يقول الشيخ ابن عاشور: «واسم الإشارة لزيادة تمييز هذا الدين مع تعظيمه».

والقيم: وصف بوزن فيعل، يفيد قوة الاتصاف بمصدره، أي البالغ قوة القيام، مثل استقام الذي هو مبالغة في قام...

وإطلاق القيم على الدين تشبيه لانتفاء الخطأ عنه، باستقامة العود، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، ويطلق - أيضا - على الرعاية والمراقبة والكفالة بالشيء، لأنها تستلزم القيام والتعهد، والمعاني كلها صالحة للحمل عليها هنا، فإن هذا الكتاب معصوم عن الخطأ، ومتكفل بمصالح الناس، وشاهد على الكتب السالفة، تصحيحا لصحيحها، ونسخا لباطلها، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[1]. فهذا الدين قوام أمر الأمة، قال عمر بن الخطاب لمعاذ بن جبل: يا معاذ، ما قوام هذه الأمة؟ قال: الإخلاص. وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والصلاة، وهي الدين والطاعة، وهي العصمة. فقال عمر: صدقت[2].

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾:

فما الذي لا يعلمونه؟ إنه ما وصف به الإسلام بميله إلى التوحيد عن الشرك، والدنيا ملأى بمن يميلون عن التوحيد إلى الشرك، وهم لا يعلمونه على وجه صحيح يحرك منهم الداعية إلى اعتناقه، ومن جهل شيئا عاداه، فكيف وهناك مئات الصوارف، وآلاف وملايين المبشرين والمستشرقين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا.

---

(١) المائدة الآية ٤٨.

(٢) التحرير والتنوير: ج١ ص٩٣، ٩٤.

وأكثر الناس اليوم: شيوعيون، ونصارى، وبوذيون. والمؤمنون قلة لا تسد الخمس من بين الناس جميعا.

ولعل هذا التذييل يلقي على أكتاف الأمة الإسلامية أعباء جساما عن أهمية القيام بتبليغ دين الله - عز وجل -، حتى نخرج من العهدة، ونبعد عن المؤاخذة.

ومما يتصل اتصالا وثيقا بالفطرة بمعنى الخلق والتدبير، أو بمعنى الدين: أن الخلق والدين مقدران تقديرا حسب قوانين سنها رب الوجود، ولذلك يجمع المولى - جل وعلا - بين الفرقان وخلق الأشياء مقدرة، حسب قوانين قدرها الله تقديرا.

يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾[2]. ويقول: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3]

وإذن ففاطر الفطرة ما غفل عنها أبدا، إنه غالب على أمرها، قائم على تدبيرها، والذي يدقق النظر في آيات الفرقان والتي ابتدأت ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده...**﴾ لا شك أنه سيلفت نظره قوله تعالى: ﴿**ولم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدره تقديرا**﴾ وكذلك قوله: ﴿**واتخذوا من دونه آلة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون..**﴾.

---

(١) الفرقان من ١-٣.

(٢) القمر: ٤٩.

(٣) يس: ٣٨-٤٠.

والآيات بهذا تشير الى مفتريات كائنة في بعض الديانات، سواء أكانت ديانات أرضية أم سماوية محرفه، ومنها.

الشريك مع الله

قلت: إن الجمل السابقة تشير إلى أن هناك من يشيرون إلى شريك مع الله، يملك أمر الخلق والتدبير والرزق والهداية: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾[1].

وعند العرب عبدوا الأصنام والكوكب والنجوم والملائكة. بينما عبد غيرهم الأنهار والناس، وبعض الحيوانات، ومنهم من حول ديانته السماوية الأصل إلى ديانة شركية، وظيفة الأب فيها أن يخلق الابن ثم يقوم الابن بعد ذلك بكل شيء، وآيات سورة الفرقان وإن كانت مكية - ولم يكن بمكة إلا المشركون - إلا أن عموم اللفظ يحق فيهم وفي غيرهم، ممن يتخذون آلهة يشركونها مع الله - سبحانه وتعالى - والآيات تقول: **﴿ولم يتخذ ولدا﴾** وهي رد على خرافة الولد عند المشركين القائلين: الملائكة بنات لله. والنصارى القائلين: المسيح ابن الله، أو اليهود القائلين: عزيز ابن الله.

ويهمني هنا عرض وجهة النصارى بالذات، لتعلقها بمسألة التدبير والتقدير والخلق والتسوية، وهي من وظائف الفاطر - سبحانه - ومن لوازم المفطور مهما كان نوعه.

إن للقوم كلاما عجيبا غريبا حول مسألة خلق الإنسان والكون، والإمام ابن القيم يعرض وجهة نظرهم فيما كتبوه، فيما أطلقوا عليه الأمانة، أو ما يقال عنه الآن: «قانون الإيمان».

وفيه ورد: (نؤمن بالله الأب الواحد، خالق ما يرى، وما لا يرى،

---

(١) الكهف: ٥.

وبالرب الواحد يسوع المسيح بن الله، بكر أبيه، وليس بمصنوع، إله حق، من إله حق، من جوهر أبيه، الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء)[1].

وقد تحيرت في الجملتين الأخيرتين أهما وصف لأبيه، أم للضمير فيها، ولما مضيت في القراءة اتضح لي أن المقصود بأتقنت العوالم، وخلق كل شيء هو عيسى عليه السلام.

يقول ابن القيم رحمه الله: (وهذه هي ألفاظهم قالوا: إن اليد التي سمرها اليهود في الخشبة - أي على الصليب - هي اليد التي عجنت طين آدم، وخلقته، وهي اليد التي شبرت السماء...

وقالوا: وعندنا أن المسيح ابن آدم، وهو ربه وخالقه ورازقه، وابن ولده إبراهيم، وربه وخالقه، ورازقه، وابن إسرائيل - يعقوب -، وربه وخالقه ورازقه، وابن مريم، وربها وخالقها ورازقها...[2].

ويصور ما أشار إليه ابن القيم رجل هداه الله للإيمان فأسلم بعد أن كان قسيسا فيقول: (أما الفيلسوف بوهمي، فيميل إلى تعظيم الأقنوم الثاني «الابن» ورفعه عن بقية الأقانيم، يقول بوهمي: إن الله في ذاته أب وابن، وروح قدس، فالأب إرادة وقوة، والابن هو موضوع إرادة الأب وقوته، فالأب بدون الابن هو إرادة وقوة بدون موضوع، أو بتعبير آخر هو هاوية وموت، ولا وجود[3].

وحتى تكتمل صورة هذا الباطل المزيف يقول الإمام المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة تحت عنوان «المسيح يدين ويحاسب»: (لم يمكث المسيح بعد قيامته هذه التي يعتقدها المسيحيون إلا أربعين يوما، ثم ارتفع بعدها إلى السماء، وجلس بجوار الأب في زعمهم، وسيأتي ليدين الناس يوم القيامة، يحاسب كل إنسان على مافعل وفكر، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وله -

---

(١) ٢٦٨ من هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم، تحقيق د.أحمد حجازي، ط ثانية ١٣٩٩هـ، ط المكتبة القيمة - القاهرة.

(٢) المصدر السابق ٢٦٨-٢٧٠، باختصار.

(٣) محمد مجدي مرجان: ص٤٢، من: الله واحد أم ثالوث، ط دار النهضة العربية بالقاهرة.

بهذا - الملك الأبدي، فلا فناء لملكه، والأب في زعمهم لا يدين أحدا، بل قد أعطى ذلك للابن، فأعطاه سلطان أن يدين الإنسان)[1].

فأين هذا من قول الله على لسان إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[2]. وعلى لسان موسى وهارون: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3] وقوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾[4].

ولكن من أين أتت خرافة الثالوث التي طمس بها التوحيد؟ ولوحت صورة الفطرة، وهي بيقين فكر أرضي بعيد عن هدى السماء.

يظهر أنها أتت من تأثر السابقين من النصارى بالأفلاطونية الحديثة، والتي تنسب إلى أفلوطين، زعيم مدرسة الاسكندرية - ولد سنة ٢٠٥ وتوفي سنة ٢٧٠ - وكان يرى فيما يتعلق بالكون ومنشئه: أن الله هو منشيء الأشياء، لا يتصف بوصف من أوصاف الحوادث، فليس بجوهر ولا عرض، وليس فكرا كفكرنا، ولا إرادة كإرادتنا، يتصف بكل كمال يليق به، ويفيض على كل الأشياء نعمة الوجود، ولا يحتاج إلى موجد، وأن أول ما صدر عنه هو العقل الذي تولد منه، وله قوة الإنتاج، ومن العقل تنبثق الروح التي هي وحدة الأرواح. وعن هذا الثالث يصدر كل شيء، ومنه يتولد كل شيء.

ووجه الشبه واضح بين هذا المذهب من جهة، وعقيدة التثليث من جهة أخرى، وإذا لاحظنا أن هذا المذهب كان منتشرا ومعروفا قبل مجمع نيقية بأمد طويل، وأن بطريرك الإسكندرية كان من أكبر المدافعين عن عقيدة التثليث في مجمع نيقية، وفي المجمع القسطنطيني الأول - ترجح لدينا أن العقيدة المسيحية قد نشأت عن التأثر بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة.

---

(١) المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية: ١٠٨.١٠٩، ط ثالثة ١٩٦١ دار الكتاب العربي.

(٢) البقرة آية ٢٥٨.

(٣) طه آية ٥٠.

(٤) المائدة آية ١١٦.

ومن الممكن أن تكون قد تأثرت كذلك بالديانة البرهمية التي استقرت على الاعتقاد بتثليث الآلهة، وإن اختلف ثالوثها عن ثالوث النصارى في نشأة كل أقنوم من أقانيمه وعمله وصفاته. فالإله براهما قد خلق العالم وسمى نفسه الخالق، ثم انبثق الإله سيغا منه، وهو الإله المدمر الموكل بالخراب والفناء، فلو ترك وشأنه لفنيت السموات والأرض ومن فيهن، ولهذا انبثق من براهما إله ثالث حافظ مجدد. هو الإله فشنو[1].

وحتى تكتمل فكرة التثليث - من أين أتت - يضيف الأستاذ محمد فؤاد الهاشمي ما يلي:

وفي مصر: آتون - آمون - رع.

وفي الصين: لاتي ين - تشانج - تشانج تي ين[2].

هذه هي المسيحية في صورتها المحرفة التي أحالت إلهها على المعاش وتركت ابنه يتصرف. وحتى تتضح صورة الفطرة، ونرى عظمة الإسلام أذكر من الآيات ما يثبت أن رب الوجود قائم على تدبيره، وهي في الآيات الأولى من سورة الأعلى.

الخلق والتسوية والتقدير والهداية من الفطرة

يقول تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ ﴾[3].

هذه الآياتُ تكمل الصورة التي ترسمها آية الفطرة في سورة الروم، فهناك «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله». وفي سورة الملك: **﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾**. وقد وصف الرب سبحانه وتعالى هنا بأنه الأعلى، ثم جاءت الآيات بعد ذلك تذكر حيثيات علوه

---

(١) د. علي عبدالواحد وافي في الأسفار المقدسة: ص١٠٦-١٠٧ بتصرف، ط أولى سنة ١٩٦٤ مكتبة نهضة مصر.

(٢) سر إيماني، لمحمد فؤاد الهاشمي ص١٥.

(٣) الأعلى من ١، ٥.

سبحانه، فهو الخالق المسوى المقدر الهادي، مخرج المرعى، ومغير ألوانه إلى غيرها، ومن ذا الذي يقدر على ذلك؟ إنه قائم على كل نفس بما كسبت، وقاهر فوق عباده، وهو الخالق دون سواه: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾[1].

ولذا كان رسول الله ﷺ يقرأ بالأعلى والغاشية يوم الجمعة ويوم العيد، ويكثر التسبيح إذا قرأ الأعلى، وكيف لا؟ وهو في معرض التحدث عن عظمة الإله الخالق - جل وعلا - وهي مدعاة التقديس والتعظيم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ قال: (سبحان ربي الأعلى)[2]، وقوله تعالى: ﴿**الذي خلق فسوى**﴾ أي خلق الخليقة، وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات[3].

وفي معنى (سبح) يقول الماوردي: (عظم ربك الأعلى، أو نزه اسم ربك عن أن يسمى به أحد سواه، أو ارفع صوتك بذكر ربك، أو صل لربك، وفي (اسم ربك) ثلاثة أوجه: أمر ربك، أو افتتح الصلاة بذكر ربك، أو كن ذاكرا لربك بقلبك، فيعني به نية الصلاة)[4]. وفي كلام ابن كثير نلمح أن الله خلق كل مخلوق في الهيئة التي تكفل له عيشه، وتدوم بها حياته، وانظر لما كان الجمل يتغذى على فروع الأشجار - كيف خلق خلقا يناسب حياته، ومثله الزرافة. وكيف زودت المخلوقات بحواس وطرائق للعيش تضمن استمرار حياتها بين أعدائها، ثم نلمح كمال الخلق، مما يدل على كمال وعظمة الخالق، ولذلك يقول الماوردي: (الذي خلق فسوى) يحتمل ثلاثة أوجه: أولها: أنه أنشأ خلقهم، ثم سواهم فأكملهم. والثاني: سوى لكل من الجوارح ما يصلح له. والثالث: خلقهم بإنعامه، وسوى بينهم في أحكامه، وسواء أكان ذلك لآدم أم له ولبنيه من بعده)[5].

---

(١) النحل: ١٧.
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود.
(٣) مختصر تفسير بن كثير: ج٣ ص ٦٢٩.
(٤) تفسير الماوردي: ج٤ ص٤٣٧.
(٥) المرجع السابق: ج٤ ص٤٣٧.

وهناك من يضيف إلى ما سبق: أن هذا الخلق بهذا الكمال دليل على الوحدانية، وهو في خلق الإنسان بالذات موجب لشكر الله، إذ خلقه مشرع القامة، ولا يمشي على أربع، ويتناول طعامه بيده، ولا يتناوله بفمه... الخ. يقول الطبرسي: (الذي خلق فسوى بينهم في باب الأحكام والإتقان. وقيل: خلق كل ذي روح فسوى يديه وعينيه ورجليه.. وقيل: خلق الإنسان فعدل قامته.. يعني أنه لم يجعله منكوسا، كالبهائم والدواب، وقيل: خلق الأشياء على موجب إرادته وحكمه، فسوى صنعتها لتشهد على وحدانيته[1].

وهذه الطريقة في الاستدلال بالكون على مكونه، وعلى ما بث في كونه من شواهد على قدرته وعظمته طريقة قرآنية، وما يذكره بعض الباحثين في الآيات الكونية من أن طريقتهم طريقة جديدة فيه شيء من التجاوز، فالجديد فيه إنما هو الشروح حسبما اكتشفه العلم أثناء تتلمذه على الفطرة. والإحساس بنعمة الهداية هو قاسم مشترك بين الأنبياء جميعا، وإعطاء كل مخلوق نمط معيشته مما يوجب المنة على العباد، الذين سخرت من أجلهم المخلوقات كلها، وهل الهداية هي هداية الدين فقط، أم أن الاهتداء إلى قوانين الفطرة جزء من تلك الهداية؟

يقول الإمام الفخر الرازي في تفسيره: (أما قوله تعالى: ﴿**الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى**﴾ فاعلم أنه سبحانه وتعالى، لما أمر بالتسبيح، فكأن سائلا قال: التسبيح إنما يكون بعد المعرفة، فما الدليل على وجوب الرب؟ فقال: ﴿**الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى**﴾.

واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء عليهم السلام، والدليل عليه ما حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾[2]. وحكى عن فرعون أنه قال

---

(١) مجمع البيان للطبرسي: ج٣٠ ص١٠٦، مكتبة الحياة - بيروت.
(٢) الشعراء: ٧٨.

لموسي وهارون عليهما السلام: ﴿**فمن ربكما يا موسى**﴾ قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾[1].

وأما محمد - ﷺ -، فإنه تعالى أول ما أنزل عليه قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾[2]. وهذا إشارة إلى الخلق، ثم قال: ﴿**اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم**﴾. وهذا إشارة إلى الهداية، ثم إنه تعالى أعاد تلك الحجة في هذه السورة، فقال: ﴿**الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى**﴾. وإنما وقع الاستدلال كثيرا بهذه الطريقة، لما ذكرنا أن العجائب والغرائب في هذه الطريقة أكثر، ومشاهدة الإنسان لها، واطلاعه عليها أتم، فلا جرم كانت أقوى في الدلالة.

وهنا مسائل:

الأولى: قوله: ﴿**خلق فسوى**﴾ يحتمل أن يريد به الناس خاصة، ويحتمل أن يريد الحيوان، ويحتمل أن يريد كل شيء خلقه، فمن حمله على الإنسان ذكر للتسوية وجوهاً:

أحدها: أنه جعل قامته مستوية معتدلة، وخلقته حسنة، على ما قال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[3]. وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[4].

وثانيها: أن كل حيوان فإنه مستعد لنوع واحد من الأعمال فقط، وغير مستعد لسائر الأعمال، أما الإنسان فإنه خلقه بحيث يمكنه أن يأتي بجميع أفعال الحيوانات، بواسطة آلات مختلفة فالتسوية إشارة إلى هذا.

وثالثها: أنه هيأه للتكليف، والقيام بأداء العبادات.

---

(١) طه: ١٤٩-٥٠.
(٢) العلق: ١-٢.
(٣) التين: ٤.
(٤) المؤمنون: ١٤.

وأما من حمله على جميع الحيوانات فقال: المراد أعطي كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس.

وأما من حمله على جميع المخلوقات فإن المراد من التسوية هو أنه قادر على كل الممكنات، عالم بجميع المعلومات، خالق ما أراد وفق ما أراد، موصوف بالإحكام والإتقان، مبرأ من الاضطراب والنسخ، وقوله تعالى: ﴿**والذي قدر**﴾ معناها: أنه ملك متصرف فيما يملك كما يشاء...

المسألة الثالثة: أن «قدَّر» يتناول المخلوقات، في ذواتها وصفاتها، كل واحد على حسبه، فقدر السموات والكواكب، والعناصر والمعادن، والنبات والحيوان والإنسان بمقدار مخصوص من الجثة والعظم، وقدر لكل واحد من البقاء مدة معلومة، ومن الصفات والألوان، والطعوم والروائح، والأماكن والأوضاع والحسن والقبح، والسعادة والشقاوة، والهداية والإضلال، مقدارا معلوما على ما قال: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[1] وتفصيل هذه الجملة لا يفي بشرحه المجلدات، بل العالم كله من أعلى عليين، إلى أسفل السافلين.

وأما قوله: ﴿**فهدى**﴾ فالمراد أن كل مزاج مستعد لقوة خاصة، وكل قوة فإنها لا تصلح إلا لفعل معين، فالتسوية والتقدير: عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمانية، وتركيبها على وجه خاص خلق - لأجله - مستعدا لقبول تلك القوى، وقوله ﴿**فهدى**﴾ عبارة عن خلق تلك القوى في تلك الأعضاء بحيث تكون كل قوة مصدرا لفعل معين، ويحصل من مجموعها تمام المصلحة[2].

فأما أقوال المفسرين في معنى الهداية فيذكرها الطبرسي بأوضح مما ذكره الفخر، رابطا بين الأسباب ومسبباتها، واضعا تحت «قدر» الأرزاق والأقوات، وما يفعله الحيوان بفطرته من فتح منقاره للطعام لتطعمه أمه، أو

---

(١) الحجر: ٢١.

(٢) تفسير الفخر الرازي: ج٨ ص٣٧٩-٣٨٠، دار الفكر ١٩٧٨م.

مص الطفل الرضيع أصبعه، وتحريك لسانه وشفتيه، أو بكائه لتعلم أمه حاجاته الفطرية، أو الأشياء الموجودة في الكون من معادن وآلات وكيف هدى الإنسان للتعرف عليها واختراعها. يقول الطبرسي: (يقول تعالى: **﴿والذي قدر فهدى﴾** أي قدر الخلق على ما خلقهم فيه من الصور والهيئات، وأجرى لهم أسباب معايشهم من الأرزق والأقوات، ثم هداهم إلى دينه بمعرفة توحيده، بإظهار الدلالات والبينات. وقيل معناه: قدر أقواتهم، وهداهم لطلبها، وقيل: قدرهم على ما اقتضته حكمته، فهدى، أي أرشد كل حيوان إلى ما فيه منفعته ومضرته، حتى إنه - سبحانه وتعالى - هدى الطفل إلى ثدي أمه، وهدى الفرخ، حتى طلب الرزق من أبيه وأمه، والدواب والطيور، حتى فزع كل منهم إلى أمه، وطلب المعيشة من جهته، سبحانه وتعالى.

وقيل: قدرهم ذكوراً وإناثا، وهدى الذكر كيف يأتي الأنثى..

وقيل هدى إلى سبيل الخير والشر، وقيل: قدر الولد في البطن تسعة أشهر أو أقل، وهدى للخروج منها للتمام.

وقيل: قدر المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لاستخراجها منها، فجعل بعضها غذاء، وبعضها دواء، وبعضها سما. وهدى إلى ما يحتاج إلى استخراجها من الجبال، والمعادن، وكيف تستخرج، وكيف تستعمل[1].

فأما التقدير بعامة فهو أساسا: وضع المقدار، وإيجاده في الأشياء، في ذواتها وقواها، والمقدار أصله كمية الشيء التي تضبط بالقياس أو الكيل أو الوزن أو العدد، وإطلاقه على المخلوقات يدل على كيفيات منظمة مطردة من تركيب الأجزاء الجسدية، ومن إيداع القوى العقلية، وعطف هذه الأشياء بالفاء عطف المسبب على السبب. وقد ألهم الله كل كائن ما يصلح حياته[2].

---

(١) مجمع البيان للطبرسي: ج٣٠ ص١٠٦-١٠٧.

(٢) التحرير والتنوير: ج٣٠ ص٢٧٦.

الفصل الثاني
الإسلام هو الفطرة

مم تتكون فطرة الإنسان:

قدمت آراء المفسرين حول الفطرة - بمعنى الخلقة وبمعنى الدين - وربطت بين الفطرة والخلق والتسوية والتقدير والهداية، وكلها صفات لازمة للفطرة ما دامت مخلوقا لله، فكل مخلوقاته - جل وعلا - مقدرة محسوبة، محكومة بقوانين تضمن بقاءها وأداءها لدورها، كما حدده لها بارئها سبحانه وتعالى.

والمخلوق في الإنسان ليس جسده فقط، وإنما ما ركب منه جميعا، وهو عقله وجسمه وعواطفه وروحه. ومنها ما يتميز به دون غيره من مخلوقات الله، وهو العقل والعواطف المميزة التي ليست ثمرة غريزية كعواطف الحيوانات، وهو ما يجعله إنساناً. كما قيل:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ومكونات الإنسان الأربع هي: فطرته، فهو لا يستغني عن عقله، فبه يفكر، ويميز، ويعلم، ويتعلم، ويتقدم، ويتحضر. ولا عن عواطفه، فبها تترابط الأسرة، فتصبح مركز المجتمع، ويتعاطف أبناؤه، ويحدث ما يطلق عليه العقد الاجتماعي بين أبناء المجتمع الواحد، كما أنه لايستغني عن شوق روحه لبارئها، وتحليقها الرفيف، وسعيها الدؤوب لمعرفته، وحصر الإنسان في الأرض بما تنتج يجعلها تضيق عليه بما رحبت، لأنه يشحذ الحيوان فيه، ويجيع روحه ويعطشها، فلا يشبع أبداً، ولايرتوي، لأن شبعه في وصله بربه، بإيجاد أركان الفطرة الأربعة فيه، وإشباعها على حد سواء، فليست الفطرة روحاً فقط، ولا عقلا فقط. فالعقل كم أضل من عاقل، وكم أغوى من راشد!

ذو العقل يشقي في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وصدق الله العظيم: «أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ»[1].

وقد قال سبحانه وتعالى - وهو يصور كفر اليهود برسول الله - ﷺ - وهم يعلمون علم اليقين أنه رسول الله: - «وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾»[2].

ودعوة الإسلام صريحة في أن العقل لا يمكن أن يستقل بمعرفة الله، ولا أن يهتدي إليه، إلا إذا صحبه في تطوافه إلى تلك الغاية: قلب يتلقى عنه كل مدركاته، فيجعلها عواطف وأحاسيس، تشع في النفس روعة وجلالا، ومن خلال هذا الشعور بالروعة والجلال، يرى المرء خالقه الواحد الأحد، المتفرد بالعظمة والجلال.

ولهذا كان الإسلام دين الفطرة، والفطرة ليست عقلا صرفا، ولا عاطفة محضا، وإنما هي مزيج من العقل والعاطفة، وإذا التقيا فلم يطغ أحدهما على الآخر، كانت الفطرة سليمة تنشد الله، وتعرف سبيلها إليه من أقرب السبل.

«تلك الفطرة المركوزة في النفس البشرية تتحرك إلى أداء وظائفها، منذ تفتح مشاعر المرء، واستيقاظ مداركه. والتعرف إلى الله عن طريق هذه الفطرة أمر سهل ميسور، لايحتاج إلى علم غزير، أو نظر فلسفي، وإنما تكفي فيه النظرة الخالصة في صفحات هذا الوجود، في الأرض أو السماء في الليل أو النهار، في الحياة أو الموت، في النبتة الصغيرة، أو الشجرة الباسقة، نظرة واحدة تري العقل شواهد ناطقة بقدرة الخالق العظيم[3].

وصدق الله العظيم: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ»[4]. وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) البقرة: ٨٩.

(٣) ص ٢٧: ٢٨ من العلم يدعو للايمان، تأليف كريسي موريسون، ترجمة محمود صالح الفلكي، ط دار النهضة العربية القاهرة.

(٤) الذاريات: ٢٠: ٢٢.

فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[1].

ومن ذا الذي يرى مخلوقات الله، ولا تتحرك فيه فطرته النقية، بأن لهذه المخلوقات خالقا مبدعا، وقد أجاد في التعبير عن داعي الفطرة شاعر حركته رؤى الإبداع في الكون - هو أبو نواس - فقال:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

كما رد على منكري الألوهية شاعر آخر فقال - يهيب بتخليص الفطرة مما شابها من كدر الأهواء والنزغات:

يقولون أين الله؟ أين عجائبه؟ ... وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشكون والإيمان ملء قلوبهم ... ويبدون ما بالقلوب تكاذبه
فأي امريء ما سبح الله مرة ... إذا راقب الأزهار وهي تراقبه
وأي امريء في الجو يرسل طرفه ... إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول: الله في عرش مجده ... وهذي حواشيه وهذي مواكبه
عجائب ربي في الأنام كثيرة ... ولكن جهل المرء لاشك غالبه

والفطرة تنكر الضلال منذ القدم، وتجعل در الخيرات إلى البشر منوطا باستجابتهم الفطرية لله سبحانه وتعالى - وعلى لسان نوح - عليه السلام - وردت هذه الآيات: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ

(١) فصلت: ٥٣.

أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾[1] ومثل هذا ورد في القرآن الكريم عن إبراهيم - عليه السلام - حين أنكر على قومه ضلالهم، ولقد كان إبراهيم - عليه السلام - قبل بعثته سليم الفطرة، مرهف الحس، نافذ البصيرة، ذكي القلب، كبير العقل، نشأ بين قوم يعبدون الأصنام، فأنكرت فطرته هذا الضلال، وأخذ يبحث عن الله حتى عرفه، ويفتش في قوى الكون عن ربه، حتى اهتدى إليه، ولذلك جعله القرآن مثالاً لأصحاب الفطر السليمة، التي لم تتدنس، والبصائر الهادية التي لم تحجب، ودليلا على أصالة الفطرة في نفوس البشر، يقول الله - عز وجل - عنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[2].

«والعقيدة في الله ليست ترفا فكريا ولا نافلة. إنما هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي حاجة ملحة للنفس والروح، فإذا فقدت تركت فراغا في النفس لا يملأ، وجوعة في الروح لاتسد، وخرابا في الضمير لايعمر، وذلك سر ما تعانيه المجتمعات الملحدة، أو التي لاتعطي عالم الروح اهتماما كبيرا من قلق، وما تشكو منه من حوادث الانتحار والصرع والجنون، وانتشار الخرافات[3].

---

(١) سورة نوح: ١٠ : ٢٠.

(٢) الأنعام: ٧٥ : ٧٩

(٣) الأستاذ محمد شديد في منهج القرآن في التربية ٧٠: ٧١، ط مؤسسة الرسالة بيروت ط أولى ١٩٧٧م.

الإسلام هو الفطرة نفسها:

لقد أشار العلامة الآلوسي - رحمه الله - في تفسيره إلى أن «فطرة» في الآية يصح أن تكون حالا من الدين، وتقديره فأقم وجهك اللدين حال كونه فطرة الله التي فطر الناس عليها، والحال تتعدد كما يتعدد الخبر، فنقول: محمد قاعد، كاتب، ولقيته مصعدا، منحدرا. أي طالعا ونازلا.

وهذا الإعراب يفيدنا أن الإسلام هو الفطرة نفسها، فالفطرة بمعنى الخلقة لله، وبمعنى الدين لله، ولايتنافى كون الله المنظور مع كتابه المقروء، فكلاهما فطرته متسقة مع فطرة الآخر، ولقد لمح هذا الملمح الطبيب المرحوم الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي فقال رحمه الله: (ومن أعجب عجائب تلك الآية - آية الفطرة - الكريمة، وأبهرها: وصف الإسلام بأنه نفس الفطرة، التي فطر الله الناس عليها، وهذا شيء فوق العقل البشري أن يتصوره، فضلا عن أن يسبق إليه في القديم أو الحديث، والإنسانية إلى الآن لاتعقل حتى إمكان تحقيقه، فلا فلاسفتها ولا مشرعوها يحدثون أنفسهم بالوصول يوما ما إلى نظام ينطبق على الفطرة من جميع الوجوه، والمسلمون في شغل بما ينبذه إليهم الغرب من مذاهب، غافلين عن الكنز الذي بأيديهم، والنور الذي فوق أبصارهم، وعن النعمة الكبرى التي منَّ الله عليهم بها في الإسلام.

وليس وصف الإسلام بأنه نفس الفطرة من باب المبالغة، كما قد يظن بعض الناس، فليس في الآية الكريمة من أدوات المبالغة، ولا من قرائنها شيء، بل وصف دقيق من فاطر الفطرة - سبحانه - للدين الذي أنزله وكمله، وأمر الناس بإقامة الوجه له، مائلين عما سواه، فهو وصف محيط شامل لتمام انطباق دين الله على الفطرة، كأنما هو هي، لاتخالفه في شيء، ولايند عنه منها شيء، دون مبالغة. فليس يحتاج الدين إلى مبالغة، لأنه لايقصر عن حاجة الإنسان وفطرته[1].

---

(١) د. محمد أحمد الغمراي: الإسلام في عصر العلم ص ٢٥.

وما دام الأمر كذلك فالإسلام يشمل الإنسانية بما رحبت، وشرف للإنسان أن يستجيب لفاطره، ويوظف حواسه فيما خلقت لأجله، فالحياة ليست نفسا يدخل ويخرج، وجسداً يتحرك، وقلبا ينبض، فقط.

إنما الحياة هي استجابة المفطور للفاطر، حتى لايخرق قانون فطرته فيذل ويخزى، وما يلهث العالم وراءه من اكتشاف قوانين الحياة هو جزء يسير من التعرف على الفطرة، فأما معرفة قوانينها كاملة فليس ذلك في مقدور بشر، لأن العلم على إطلاقه وشموله ليس إلا الله، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[1].

وقد عبرت الآية بأن الدين فطرة الله، فهل يقارن به شيء ما، مما أطلق عليه مذهب أو دين؟ الجواب: لا. وهل يستوي من يخلق ومن لايخلق؟ إنه لشرف وكمال للمخلوق أن ينتسب إلى خالقه.

«وإضافة الفطرة إلى الله فيها، ما فيها من التشريف وتوكيد التمام والكمال في الجبلة الإنسانية والدين الإسلامي، والإسلام يشمل علاقة الإنسان بالكون كله، وبالفطرة على إطلاقها. إلا أنه - كدين - يتعلق أول ما يتعلق بالإنسان، وبالسنة التي فطره الله عليها، والتي لا راحة له ولا سعادة إلا في تحقيقها وتطبيقها كاملة غير منقوصة. والتعبير (بالناس) صريح في الدلالة على أن الإسلام طبق فطرة الإنسان فردا وجنساً، قبائل وشعوباً. يفيد الناس على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم، ولا يجدون تمام تحقيق فطرتهم إلا فيه.

والآية الكريمة - آية الفطرة - تجعل الإسلام ليس فقط دين الفطرة، ولكن نفس الفطرة. وهذا أوجز تعبير وأوكده وأشمله، بتمام انطباق الإسلام على سنن الله، التي خلق عليها الإنسان، سواء أتعلقت بالبدن، أم بالنفس، وبالعقل أو القلب، في الفرد والأسرة والطائفة، أو في القبائل والأمم والشعوب[2].

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) المرجع السابق ص ٢١: ٢ بتصرف.

وفي الحديث الشريف ما يفيد بأن الإسلام هو الفطرة.

وقد ورد في حديث أبي هريرة عن الإسراء والمعراج: أن النبي - ﷺ - قال: «ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، قال: فأخذت اللبن، قال - أي جبريل -: هذه الفطرة، أنت عليها وأمتك». متفق عليه.

وعن سعيد بن المسيب أن جبريل قال للنبي - ﷺ - : أصبت، هديت للفطرة، لو أخذت الخمر لغوت أمتك». أخرجه البيهقي والشيخان.

إن هذا الشمول في الإسلام لكل ما هو موجود في الكون من حبة الرمل إلى أعظم الكواكب لم يسترع انتباه علماء المسلمين فقط، بل استرعى انتباه كثير من العلماء الغربيين، حتى حاروا في عظمة القرآن عندما سمعوه. وهم يملكون في معاملهم من الميكروسكوبات والتلسكوبات من الأجهزة المكيرة للصغير ملايين المرات، والمقربة للبعيد حتى ترى تفصيله العين، وتدرسه: ما يجعلهم يقدرون الأمور حق قدرها، فليس من ينظر بالعين المجردة فيرى الأشياء إجمالا، كمن ينظر بالأجهزة العلمية فيراها تفصيلاً، والقرآن قد ذكر أشياء فهمت في حينها على قدر العلم المتاح، كالذرة وإخراج اللبن من الحيوان، ورتق السماء والأرض، ثم لما ترقى العلم وضح ما فهم أولا أشد الوضوح، ولعله كلما تقدم العلم كلما خدم الإسلام، وصدق الله العظيم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1]. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾[2].

وإن دين الفطرة لن يضيق أبداً بالعلماء الباحثين فيها، كما أنه لن يكون هناك تعارض وخصام بينه وبين العلم، إنه يجعله عبادة لله، سواء أتعلق بالشرع أم بالكون، فهما جناحاً الفطرة اللذان يكمل كل منهما أخاه، وهما

---

(١) سورة الملك: رقم ١٤.

(٢) سورة النجم: رقم٣٢.

برهان أن الاسلام دين الفطرة، وشريعة الوجود التي لاتضيق أبداً بتأمل العقل، ولا بخلجات القلب، والحقيقة: **﴿أن رحابة الموضوعات القرآنية، وتنوعها لشيء فريد حقا، طبقا لتعبير القرآن نفسه،«مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾**[1] فهو يبدأ حديثه من ذرة الوجود المستودعة باطن الصخر، والمستقرة في أعماق البحار، إلى النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم، وهو يتقصى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني، فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس، وهو يتجه نحو ماضي الإنسانية البعيد، ونحو مستقبلها، كيما يعلمها واجبات الحياة، وهو يرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابع، ثم يدعونا إلى أن نتأمله، لنفيد من عواقبه عظة واعتباراً.

وإن درسه الأخلاقي لهو ثمرة معرفة متعمقة، في الطبيعة البشرية، تصف لنا النقائص التي ينهي عنها، وينفر منها، والفضائل التي يدعونا إلى التأسي بها، من خلال حياة الأنبياء، أولئك الأبطال والشهداء في سجل ملحمة السماء، وعلى هذا الأساس يدفع القرآن المؤمن إلى الندم الصادق، حين يعده بالغفران أساس التربية الجزائية في الأديان السماوية.

أمام هذا المشهد العظيم وقف الفيلسوف «توماس كارليل» فما تمالك عنه، بل انبعث من أعماقه صرخة إعجاب بالقرآن، فقال: (هذا صدى متفجر من قلب الكون نفسه) وفي هذه الصرخة الفلسفية نجد ما يشبه الاعتراف التلقائي لمصير إنسان كهذا، أمام عظمة الظاهرة القرآنية، وإن العقل الإنساني ليقف فعلا حائراً أمام رحابة القرآن وعمقه، إنه بناء فريد ذو هندسة ونسب فنية، تتحدى المقدرة الإبداعية لدى الإنسان.

إن عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض، حيث يخضع كل شيء لقانون الزمان والمكان، بينما يتخطى القرآن دائما نطاق هذا القانون، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية،

---

(١) الأنعام: ٣٨.

ومن المقطوع به أنه لو أتيح لأحد الناس أن يقرأ القرآن قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه، فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق[1].

توجيه الناس إلى التعرف على سنن الفطرة

الناظر في التوراة - كتاب اليهودية المزعوم، وفي الإنجيل كتاب النصرانية المزعوم أيضاً - لايرى فيهما توجيها نحو التعرف على أسرار الفطرة وسننها، لأن الإنجيل كتاب نصائح ووصايا وعظات، ولذا لايولي سنن الفطرة وناموس الوجود كبير اهتمام، وما في التوراة عن بدء الخلق قد اختلطت فيه الخرافة بالحقيقة، والإضافات من جانب الأحبار بما هو من التوراة الأصلية، فأصبح مزيجا من الحق والباطل، وفكر الإنسان ودين الله.

بالإضافة إلى ركاكة النصوص، وانحدار قيمتها البلاغية، وتلك آفة الفكر البشري من جهة، وآفة الترجمات من جهة أخرى، كما أن بعض المعتقدات في التوراة والإنجيل مما لاينبغي التصريح به، أو تصوره عن الذات الإلهية، ويبدو أن معايشة اليهود للوثنيين قد أثرت عليهم تأثيراً كبيراً، حتى طلبوا من موسى - عليه السلام - أن يجعل لهم صنماً يعبدونه ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[2]. وكذلك أثرت تصورات أقوام كثيرين على النصارى، فثالوثهم موجود لدى مدرسة الإسكندرية المسماة بالأفلاطونية الحديثة، وموجود لدى المصريين القدامى، ولدى الصينيين القدامى، وكذا الهنود.

ومن هنا خالفت اليهودية والنصرانية فطرة الإنسان فنفر منها، واحتاجت

---

(١) المرحوم مالك بن بني: الظاهرة القرآنية: ص ١٨٧: ١٨٨، ترجمة د. عبد الصبور شاهين ط دار الفكر ١٩٨١.

(٢) الأعراف: ١٣٨.

إلى جراحات لرتق الفتوق فيها، ولكنها بقيت مع ذلك لاتروق إلا للعوام والمنتفعين من رجال الدين.

فأما كتاب الفطرة - القرآن الكريم - فقد حوى من أسرار الفطرة وسننها ما يستجيش العقل البشري، والقلب الإنساني، فأسرار الفطرة قد نضدت فيه تنضيداً، وأحكمت إحكاما، يجعل اعتى الناس يحني هامته إجلالا له، وصدق الله العظيم: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]. وقد حوى القرآن ما يقرب من سبعمائة آية، حفلت بالعديد من الإعجاز العلمي، وهناك كتب ورسائل جامعية كتبت حول استكناه حقائق معاني تلك الآيات الحافلة بأسرار فطرة الإنسان والكون. وسوف أسوق بعض الأمثلة القليلة على ذلك:

يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾[2].

إن الناظر في هذه الآيات يرى أنها أشارت إلى أربعة أشياء، فأخذت من الحيوان مثالا، ومن السماء مثالا، ومن الجبال مثالا، ومن الأرض مثالا، ثم عقبت على ذلك بقوله تعالى: **﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾**. ولماذا «فذكر» بعد هذه الأشياء؟ بعد الإبل بمنافعها من لحم ولبن وجلد ووبر وحمل واستخدام للجهاد، ثم في صبرها وجلدها على الجو والعطش وسير الصحراء وسلاسة قيادها، وفي خلقتها الجسمية من حدة البصر ورهافة السمع، بل وما اكتشف الطب في ألبانها وغيرها من منافع طبية. إن التذكير بعظمة آثار العظيم هو تذكير ضمني أو نصي على عظمته، يقول الماروردي: (إن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوانات، لأن ضروبه أربعة: حلوبة، وركوبة، وأكولة،

---

(١) سورة الحشر: رقم ٢١.

(٢) سورة الغاشية: ١٧: ٢١.

وحمولة. والإبل تجمع هذه الخلال الأربع، فكانت النعمة بها أعم، وظهور القدرة فيها أتم)[1].

فأما رفع السماء مع ما فيها من مليارات النجوم والكواكب بكتلها الرهيبة، وأبعادها الشاسعة، وطريقة سير الكواكب والنجوم فيها، فشيء لاطاقة للبشر إلا تأمله، والنظر فيه، ثم التسبيح بحمد مسريها ومجريها، وعالم مشارقها ومغاربها. . . ، يقول الإمام بن كثير في تعقيبه على هذه الآيات: (يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة ملى قدرته وعظمته، «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلق». فإنها خلق عجيب، وتركيبه غريب، هي في غاية الشدة، ومع ذلك تنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها، ونبهوا بذلك، لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا، حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، أي كيف رفعها الله عز وجل عن الأرض هذا الرفع العظيم، . . . «وإلى الجبال كيف نصبت»، أي جعلت منصوبة، فإنها ثابتة راسية، لئلا تميد الأرض بأهلها. . . «وإلى الأرض كيف سطحت». أي كيف بسطت ومدت ومهدت، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم، الخالق المالك المتصرف، وأنه لايستحق العبادة سواه»[2].

وقد أشار ابن كثير إشارة عارضة عن نصب الجبال، يكملها ذكر بعض من ضوء ألقاه عليها الدكتور الغمراوي يقول: (وعجيبة ذكر الجبال مع السماء والأرض على سواء، وإن جاء ذكرها بعد ذكر السماء وقبل ذكر الأرض، لما بين رفعة السماء، وارتفاع الجبال من تناسب، وما بين نصب الجبال وبسط

---

(١) تفسير المارودي: جـ ٤ ص ٤٤٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: جـ ٣ ص ٦٣٣.

الأرض من تقابل. والجبال جزء من الأرض. فأي حكمة في خفض سطح الأرض عن سطح الجبال؟ وخفض سطح الجبال بعضها عن بعض؟»[1].

ويواصل حديثه عن الجبال وهو يعلق على قوله تعالى **﴿والجبال أوتادا﴾** قائلا:

(ينبغي أن يكون في تشبيه الجبال بالأوتاد توكيد للشبه الشديد بينهما من ناحية... البروز عن سطح الأرض، والرسوخ فيها، فالأوتاد تختلف من ناحية البروز والميل على سطح الأرض، وكذا الجبال تختلف فيما فيها، والأوتاد يختلف رسوخها باختلاف صلا بتها وشكلها ومدى ذهابها في الأرض، وطبيعة تلك الأرض، وكذلك تختلف الجبال من ناحية الرسوخ.

وأمر آخر وهو: أن الأوتاد تحتاج إلى تشكيل، ثم تثبيت بقوة ما، إذن فجعل الجبال كذلك يقتضي أنها أنشئت بفعل قوة ما. وأعظم الجبال قد نشأت نتيجة لقوة عظيمة، عملت على قشرة الأرض لما هبطت بثقلها حين خلا ما تحتها بانقباض باطن الأرض وانكماشه، لما برد بالتدريج. وهذا يشبه دق الأوتاد، حيث يناظره فعل التثاقل عند هبوط قشرة الأرض، والضغوط الجانبية على التربة من حول الوتد عند دقه تشبه القوى الجانبية العاملة في القشرة الأرضية على خطوط الضعف فيها، حتى تتموج إلى جبال وهضاب ووديان.

فأما علو الجبال فيساعد على حفظ الغلاف الهوائي المحيط بالأرض من جميع الجهات، المرتفع على سطحها مئات الكيلومترات، الواقي لأهلها من الشهب والنيازك وأشعة الشمس: البنفسجية، وفوق البنفسجية[2].

ومثال آخر من توجيهات القرآن إلى التعرف على أسرار الفطرة، وهو مجموعة آيات من سورة النمل يقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ

---

(١) الإسلام في عصر العلم: ص ٣٢٦.

(٢) المرجع السابق: ٣٢ - ٣٣ بتصرف.

عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾

وفي طريقة توجيه القلوب والعقول إلى ما في تلك المخلوقات التي أشارت إليها الآيات من أسرار بطريقة السؤال والجواب ما يشحذ العقل وينبه الفطرة، ويستجيش العواطف. وهي تبدأ بتوجيه الحمد إلى مستحقه، والسلام على رسله. وكأنها بيان قدم الحمد والثناء بين يديه على الخالق، ومرسليه - عليهم السلام - إلى الخلق، وهي: إشارة ضمنية إلى أن معرفة الله حقالاتكون إلا عن طريق سفرائه إلى خلقه ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2].

ثم تعقد مقارنة بين المعبود الحق ومن أشركوهم معه، وأيهما خير؟ ثم تتوالى وتتابع الحيثيات على عظمة الله فهو خالق السموات الأرض، ومنزل الماء من السماء، ومنبت الحدائق المبهجة للنفوس، والتي يعجز العابدون لغير الله ومن يعبدونهم عن أن ينبتوا شجرة منها، ثم الاستفهام الذي يقرر: أبعد هذا كله يوجد إله مع الله؟ والجواب أن من يفعل هذا يعدل، أي يميل عن عبادة الله إلى غيره.

---

(١) النمل: ٥٩: ٦٥.

(٢) النساء: ١٦٥.

ثم يتوالى المشهد الحافز على التأمل والإقرار حول جعل الأرض قرارا وتسيير الأنهار فوقها، وزرع الجبال لتثبيتها، وحجز ماء البحر عن ماء النهر «بالكثافة أو بالبرزخ» الحاجز بينهما، فيظل مجرى كل منهما متميزاً عن الآخر، لو التقيا لايمتزجان، ولايبغيان، فمن فعل هذا كله؟ «أمن يجيب المضطر إذا دعاه»؟ ففي لحظات الكربة والضيق لايجد البشر ملجأ إلا الله، يدعونه فيكشف عنهم السوء عندما يشتد الكرب، وتضعف القوى، وتتخاذل الهمم. يتجه الناس إلى الله، فيصرف عنهم السوء.

إن لحظة الكرب توقظ الفطرة، فتلجأ تلقائياً إلى بارئها، فتجده برا رحيماً، وتلك حقيقة كائنة في الفطرة الإنسانية، يسوقها القرآن للمعاندين، لعلهم يستبصرون. أإله مع الله! وتتواصل التساؤلات: من مرسل الرياح بشرا وكشفا؟ إنعاما وانتقاما، وكيف تتكون فلكيا وجغرافيا؟ من فلق الحب والنوى، وصب الماء صبا؟ وهدانا إلى استخراج كنوز البر والبحر؟ وجعل الضوء والحرارة بقانون، والمد والجزر بقانون؟ وما الحكمة من وراء ذلك كله؟ إنها:

أ - إيقاظ العقل عن طريق استجاشة الفطرة.

ب - حث الوجدان ليفيق العقل من سباته، فإن الكون يقوم على ناموس واحد، ترتبط جميع أجزائه، وهو من صنع إرادة واحدة، هي إرادة الله، ولو تعدد الإله لتعددت النواميس، فتصادم الكون، واضطرب وفسد[1].

الدعاء من سنن الفطرة

وأمر آخر مما يتصل بحاجة المفطور إلى فاطره، ويربط المخلوق بخالقه، وهو الدعاء، ففي قلب كل امريء - حتى ولو كان كافرا - صوت

(١) د.رؤوف شلبي الدعوة في العصر المكي: ص ١٠٨: ١٦٦، باختصار شديد، ط مجمع البحوث الإسلامية.

يقول له: إن الصانع هو الله، ويجعله يتوجه إليه إذا عز النصير، وانعدم المؤازر.

ولذا نجد في القرآن الكريم التوجه إلى الله بأنه فاطر السموات والأرض يقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[1]. وهذا منه تعالى بعدما ذكر حب المشركين للشرك، ونفرتهم من التوحيد: فهو - سبحانه - يأمر نبيه في توجهه إليه بندائه بأنه فاطر السماء والأرض. أي ادع أنت الله وحده، لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي جعلها على غير مثال سابق (عالم الغيب والشهادة) أي السر والعلانية. (أنت تحكم بين عبادك، فيما كانوا فيه يختلفون). أي في دنياهم، وستفصل بينهم يوم معادهم وقيامهم من قبورهم. روى مسلم في صحيحه، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، قال: سألت عائشة رضي الله عنها، بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته **﴿اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم﴾**[2].

وروى ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال[3]: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الدنيا، أني أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر، وتباعدني عن الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدا، توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله عز وجل لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إلي عهدا، فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة...﴾[4]. إن شحذ العقل

---

(١) الزمر: رقم ٤٦.
(٢) رواه مسلم عن عائشة.
(٣) أخرجه أحمد عن ابن مسعود.
(٤) مختصر تفسير ابن كثير: ج٣ ص٢٢٣.

بالنظر إنما هو لإشباع قلب وعاطفة الإنسان، حتى يكون أقرب إلى إدراك عظمة خالقه، وقد يفتح أمامه ذلك الإدراك من المدركات ما لا يدركه المكبلون بقيود المادة، الراكنون إليها. فتوجد لديه متع روحية وفطرية تفوق كل متع الدنيا.

وإذا كانت الروح الخالدة تستطيع رؤية الأشياء كما هي فإنها تقدر أن تكتسب جميع الحواس المختلفة الرقيقة التي لكل الكائنات الحية، وبذا تستطيع أن تدخل في ميادين جديدة عجيبة للمعرفة والشعور.. وربما تتمتع بموسيقى جديدة، وأنغام كثيرة، وألوان أزهى من أن تحملها عيون البشر، وبحسرات لا نهاية لها، ترتقب روح الإنسان بعد تحررها من الجسد.

ولست أدري أي مدى تبلغه قوة التصور إذا اكتسبت في الحياة الأخرى، كما يؤمن بالجنة، ويرى أحباءه فيها، ويضمهم إلى صدره، فيقدر أن يرى الحقيقة الكبرى - أعني الخالق عز وجل - وعندها يسمع الصم، ويتكلم البكم، ويبصر العمي، ويرقى الناس نحو الملكوت، ويرون جمالا يصغر إلى جواره كل جمال، وتصبح المادة مثل الظل الذي يبهت أمام الشمس[1].

فتبارك الله رب العالمين، وتعاظم الله أحسن الخالقين.

العلم المادي يؤكد وجود الفاطر عز وجل

قوانين الفطرة شاملة للروحي والمادي والإنساني والحيواني، المتحرك الحي، والجماد الخالي من الحركة، وقد يظن أن التقدم العلمي، واتساع المعارف الإنسانية يغني عن الدين، ذاك ظن بعض قصار النظر من أنصاف المتعلمين وأرباعهم، ولكن الحقيقة خلاف ذلك، فالإيمان في حقل التبحر العلمي هو الأصل، والإلحاد هو الشذوذ، منذ فلاسفة اليونان، وحتى الآن، ونحن نرى من آن لآخر تلاقي دين الفطرة مع العقل المبدع، فيسلم له العقل

---

(١) العلم يدعو للإيمان: ص١٨٢-١٨٣، بتصرف.

المبدع، معلنا شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ونحن لم ننس بعد: روجيه جارودي، ولا موريس بوكاي، ولا رينيه جينو (عبدالواحد يحيى)، ولا محمد أسد (ليوبولد فايس) وغيرهم كثيرون.

يقول الأستاذ محمد قطب: (ولكن علماء أوروبا وكتابها مع ذلك ليسوا اليوم كلهم من أعداء الدين، وفيهم قوم معقولون، تحررت نفوسهم من مادية أوروبا الملحدة، وعرفوا أن العقيدة حاجة نفسية، وحاجة عقلية في ذات الوقت، ومن أبرز أمثلتهم: جيمس جينز العالم الفلكي الذي بدأ حياته ملحدا شاكا، ثم انتهى عن طريق البحث العلمي إلى أن مشكلات العالم الكبرى، لا يحلها إلا وجود إله، وجينز برج - عالم الاجتماع الشهير - الذي يشيد بالدين الإسلامي خاصة لجمعه بين المادي والروحي في فكرة واحدة، ونظام واحد، ثم ها هو ذا الكاتب المشهور سومرست موم يقول كلمته الصادقة البارعة: (إن أوروبا قد نبذت اليوم إلهها، وآمنت بإله جديد، هو العلم، ولكن العلم كائن متقلب، فهو يثبت اليوم ما نفاه بالأمس، وهو ينفي غدا ما يثبته اليوم، لذلك تجد عباده في قلق دائم، لا يستقرون)[1].

فإذا أضفنا إلى آراء السابقين من العلماء بعض آراء النابغين من مشاهير علماء أوروبا تأكد لدينا أن طريقة القرآن في الاستدلال بالمخلوق على خالقه هي الطريقة التي يهتدي بها كبار العلماء الباحثين في الكون إلى عظمته سبحانه وتعالى:

لقد آمن ديكارت الفيلسوف الشهير بعد الشك، فقال: أنا أفكر، إذن أنا موجود، ثم لم يقف عند ذلك، ورأى أن هذا التفكير يدل على أن له واهبا حقيقيا، وأن ذلك الواهب منبع لا نهائي، ووجود كامل أزلي. ويفهم من كلامه أن موجد الكائنات ذو حكمة غير متناهية، وكما أن الصانع والمصنوع ليسا ماهية واحدة، كذلك الواهب والموهوب لا يلزم أن يكونا من ماهية واحدة، وحيث أن خزانة علم الواجب الحقيقي وحكمته أعلى وأكمل

(١) محمد قطب في شبهات حول الإسلام، ص١٧-١٨، ط الرابعة عشرة ١٩٨١ دار الشروق.

الخزائن، فإنها تختلف عن جزء الذكاء الذي يتجلى في الموجودات، ولن يتصور أي مفكر أن واهب العقل والحكمة هو وجود جامد.

رأي لابلاس في المسبب الأول:

يعتبر لابلاس من أكابر العلماء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومن شيوخ الرياضيين والفلكيين على الأخص، يقول بعد إيضاح مجموعة الشمس: إن النظام المحير للعقول، المشاهد في حركات الأجرام التي تتألف منها المجموعة الشمسية، لا يمكن أن يحمل على التصادف، بل التصادف كلمة لا يصح النطق بها في لغة العلم، إن التصادف معدوم ومحال في هذا العالم الذي نرى فيه كل شيء خاضعا لقوانين الموازنة والحساب التي عينتها إرادة غيبية، وحكمة بالغة، وما الشيء الذي ندعوه التصادف إلا محصلة القوات الغيبية التي لا نعلم عن صورة تأثيرها شيئا، بل لا نعلم عن وجودها شيئا، في حين أنها تحيط بنا، وبناء عليه، لا يحمل هذا النظام على الصدفة، ولا بد من الاعتراف بوجود سبب أصلي عام منظم لهذا النظام[1].

ويذكر الأستاذ محمد شديد من أقوال العلماء ما يثبت إيمانهم بالفاطر جل وعلا، فيقول: يقول «أدنجتون»: إن من وراء هذا الكون عقلا مدبرا حكيما، هذا العقل هو الروح الأعظم، هو الله - سبحانه وتعالى -، ويقول «آرثر كومبسون» الحائز على جائزة نوبل في الكشوف الذرية: لست في معملي أعنى بإثبات حقيقة الحياة بعد الموت، ولكني أصادف كل يوم قوى عاقلة تجعلني أحس إزاءها أحيانا بأنه يجب علي أن أركع احتراما لها).

ويقول الدكتور «ستانيميتز»: ستحدث أعظم الاكتشافات في النواحي الروحية، فسوف يأتي اليوم الذي يتعلم فيه الناس أن الأشياء المادية لا تجلب السعادة، وأنها قليلة النفع في جعل الرجال والنساء أقوياء قادرين على الإبداع، وعندئذ سوف يحول علماء الدنيا معاملهم إلى معرفة الله والصلاة،

---

(١) المرحوم المشير أحمد عزت: الدين والعلم ص٢١ ط ١٩٤٨، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة.

وعندما يأتي هذا اليوم، سيشاهد العالم في جيل واحد من التقدم، أكثر مما شاهده في الأجيال الأربعة السابقة[1].

ومهما علا صوت المادة أو الهوى أو الشهوة فإن صوتا خافتا يصل للقلب ينقر عليه، وللأذن يهمس فيها، محال أن ينسى، لأن كل ما في الكون يذكر به، من أصوات الناس والحيوان، وهبات الهواء، وأشكال الطيور، كل يذكر ببديع السموات والأرض، فاطرها الذي جعل للناس من أنفسهم أزواجا، ومن الأنعام أزواجا.

يقول الدكتور أحمد زكي: (من تحت صخب النهار، ومن بين الأصوات الصارخة في معركة العيش، يحس الإنسان منا صوتا خافتا، يحاول دائما أن يصل إلى الآذان. عندما يتعب القائم فيحتاج إلى القعود، وعندما يجهد الجاهد فيتصبب عرقا، فيأوي إلى ركن هادىء يجفف عرقه، أو يصل إليه في هدأة الليل، وهو قاعد في العراء، يرعى أشياء الأرض ونجوم السماء.

وهو إذ يرعى السماء يزداد الصوت الخافت في أذنيه، ثم يزداد حتى يصير صراخا، ما هي هذه السماء؟ ما هي هذه النجوم؟ ما أعدادها؟ وما أبعادها؟ وما فتات النور المبعثر في قبة السماء؟ وكيف تحور هذه القبة وتدور؟ وما شروق لها وغروب؟ وما نسق وأنساق تجرى عليها؟ ومواعيد تضربها فلا تخلف أبدا؟

ويأخذ ينعم النظر، رافعا بصره، مالئا به عينيه وفكره وقلبه. وعندئذ يرى الصور الجارية - في أزمة - يجمعها زمام واحد، ويرد كل المعاني والصور والمباني إلى يد صناع واحدة، تحركها إرادة عاقلة، منسقة، هادية، واحدة.

فتلك يد الله، وتلك إرادته[2].

وصدق والله من قال في تأمله: سل الكون من خلقه وبراه؟ والإنسان

---

(١) ص٧٩ من منهج القرآن في التربية، للأستاذ محمد شديد، نقلا عن: الله والعلم الحديث، للدكتور عبدالرزاق نوفل.

(٢) مقدمة كتاب العلم يدعو للإيمان: ٣٥-٣٦ بتصرف.

من أبدعه وسواه؟ والنور من زينه وحلاه؟ والتمر من صوره ولونه وسكَّره وأحلاه؟ وسل العسل من جعله شفاء للناس وأشهاه؟ وسل المؤمن من أعذب الإيمان في قلبه وأبهاه؟ وسل الليل من أعطاه دجاه؟ والنهار من أنار ضحاه؟ والصيف من جعل فيه لظاه؟ والشتاء من أنزل من السماء فيه عذب المياه؟ إنه الله. الله. الله.

صاح ما للغيم على القلب قد تلبد؟ وللشعور قد تبلد؟ وأنت بين هذا وذاك تظن أنك فرقد!

إن الشيطان لعنيد، والإيمان لشديد، وهما يصطرعان فإن كنت من صرعى الشيطان فأنت اليوم بائس، وغدا يائس، وجدك تاعس، خاب سعيك، وحبط عملك، وطاش عقلك، تعس فألك.

مالك ترتفع في نعمه وتعصيه؟ كأنك في مأمن من نقمه، وتؤذي خلقه، كأنك لست في متناول يد القدرة الإلهية، وهي في سعتها تحيط بكل هارب، وتحاسب الخلق ضربة لازب، وتفيض الفيض الذي لا ينتهي.

حفظ الفطرة نقية على الأنبياء دون غيرهم:

كل البشر العاديين يتأثرون ببيئاتهم ويؤثرون فيها، ولذا يكون فيها صوابهم وخطأهم، وفيهم - أيضا - من صوابها وخطئها، ولم يسلم من ذلك أذكى العباقرة، ولا أعلم العلماء، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يوجد من يصاحب المسيرة البشرية متمثلا فيه نقاء الفطرة وصفاؤها، وبعدها عن التلوث بشوائب تكدر الطبع، وانحراف القلب، وهؤلاء هم الأنبياء، فلم يتأثروا بالشر المسيطر في بيئاتهم، وإنما أخذوا منها خيرها، ونبذوا شرها، مع مخالطة للناس، وأعمال كأعمالهم، وذلك لأنهم رُبّوا تربية حفظت فطرتهم من التأثر إلا بالخير، ولم يُجعل للشيطان عليهم سبيل، ولا يفهم من آية الفطرة «فطرة الله التي فطر الناس عليها» التسوية بين الأنبياء وسائر الناس، فالناس يخرجون من مقتضى الفطرة قليلا أو كثيرا، بفعل البيئة، أو الوراثة، أو التربية، فأما الأنبياء فمحال أن يخرجوا عن فطرتهم في عمل أو قول، فأما في العمل فالله

يسدد خطاهم، ويرشدهم إلى الخير، ويذكرهم إذا نسوا، وهم محفوظون ألسنة وأبصارا وقلوبا. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[1]. ويفصل رب العزة بين من يجوز عليهم التقول لالتياث فطرهم، وبين من لا يجوز التقول عليه، فيقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[2]. ذلكم هو محمد - ﷺ - المحفوظ بحفظ الله. وإخوانه الأنبياء.

ولم هذا التشديد في حفظ فطرة الأنبياء نقية نقاء تاما؟ والجواب لأنهم أسوة، والأسوة هي مثال منصوب للكمال، فلو فرض وقوع شيء مخالف للصواب فهل يتأسى بهم الناس في ذلك أم لا؟ إن أجيب بنعم انتشر الفساد، وعم بمباركة السماء، وإن قيل: ل فما قيمة إرسالهم إذا طلب من البشر عصيانهم، أو إذا جاز لهم ذلك.

ولعل حفظ فطرهم هو المشار إليه في القرآن الكريم بالاصطفاء والاصطناع للنفس، وعند المتكلمين: هو ما يطلق عليه العصمة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[3]. ويقول: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[4] ويقول: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ

---

(١) النجم: ٢-١٧.
(٢) الحاقة: ٤٤-٤٧.
(٣) آل عمران: ٣٣.
(٤) الأعراف: ١٤٤.

وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾[1]. ويقول: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾[2] و ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾[3].

وهو: «مصطفيهم - سبحانه وتعالى -، فيعدهم إعدادا خاصا، قبل ميلادهم، يعدهم في أصلاب أجدادهم وآبائهم، فيتخير الله عز وجل لهم الأجداد والآباء، والجدات والأمهات، خلْقا وخلُقا يقول - ﷺ - فيما رواه الإمام مسلم: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». ولقد رسم الله ماضيهم البعيد، ورسم حاضرهم الذي عاشوه - طفولة، فشبابا، فكهولة، فشيخوخة - منذ الأزل. يقول - سبحانه - في سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾[4].

والوجاهة والقرب والصلاح ليس خاصا بعيسى - عليه السلام - وحده، وإنما هو عام في كل الرسل[5].

ومحمد - ﷺ - خاتمهم، قد جمع الله فيه كل أخلاقهم، ولذا فإن من أراد أن يدرس الفطرة في أنقى صورها وأبهاها - فليدرسها في شخصية محمد ﷺ، ففيه من خلق آدم، ومعرفة شيث، وشجاعة نوح، وخلة إبراهيم، ولسان إسماعيل، ورضا إسحق، وبلاغة صالح، وحكمة لوط، وشدة موسى، وصبر أيوب، وطاعة يونس، وجهاد يوشع، ولحن داود، وحب دانيال، ووقار

(١) ص: ٤٥-٤٨.
(٢) طه: ٣٩.
(٣) طه: ٤١.
(٤) آل عمران: ٤٥-٤٦.
(٥) بتصرف من ص١٩٤ - ١٩٥، من الإسلام والعقل، د.عبدالحليم محمود، ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

إلياس، وعفة يحيى، وزهد عيسى، ولذا يعتبر نموذجا لفطرة الله التي فطر الناس عليها.

وصدق الله العظيم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]. قال ابن عباس: وإنك لعلى دين عظيم، وهو الإسلام، وقال عطية: لعلى أدب عظيم. وقال ابن جرير: عن سعيد بن هشام قال: أتيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقلت لها: أخبريني بخلق النبي - ﷺ - فقالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ ومعنى هذا أن امتثاله - ﷺ - للقرآن صار سجية وخلقا[2].

ويوضح لنا الشيخ الخضري كيف كملت الفطرة في محمد ﷺ فيقول:

كان - عليه السلام - أحسن قومه خلقا، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، حتى كان أفضل قومه مروءة، وأكرمهم مخالطة، وخيرهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، فسموه الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السديدة: من الحلم والصبر، والشكر والعدل، والتواضع والفقه، والجود والشجاعة والحياة.

وبغضت إليه الأوثان بغضا شديدا، حتى ما كان يحضر لها احتفالا أو عيدا، مما يقوم به عبادها، كما بغض إليه الشعر، واللهو، وحرم عليه شرب الخمر، وذلك كله من الصفات التي يحلي بها أنبياءه، ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقي وحيه، فهم معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها، أما قبل النبوة فليتأهلوا للأمر العظيم الذي سيسند إليهم، وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم، عليهم من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات[3].

---

(١) سورة القلم: ٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ج٤ ص٥٣٣، بتصرف.

(٣) المرحوم الشيخ الخضري، نور اليقين ص١٦-١٨، بتصرف، ط سابعة ١٩٣٥ المكتبة التجارية بالقاهرة.

فأما غير الأنبياء فهم يخطئون ويتوبون، ويذنبون ويستغفرون، ويختلفون في قربهم من الفطرة أو بعدهم، حسب حياة قلوبهم، وطهارة نفوسهم، وزكاء عقولهم، وكلما ازداد المرء قربا ازداد نقاء وطهرا، وكلما ازداد بعدا ازداد ضلالا ونكرا، وعلى حسب التقرب من العبد يكون القرب من الرب، ولعل مما يتصل بنقاء الفطرة وتلوثها تسليمها لدين الله، ومعاندتها له. فماذا ينكر المعاندون على رسول جاءهم بالفطرة النقية، وأجمعوا على تلقيبه بالأمين؟ يقول ابن القيم: «هو أحق العالمين بهذا الاسم، فهو أمين الله على وحيه ودينه، وهو أمين من في السماوات ومن في الأرض، ولهذا كانوا يسمونه قبل النبوة بالأمين[1].

الفطرة بين التسليم والمعاندة

الإسلام وحده هو والفطرة السليمة شيء واحد، ومبادئه وحده هي التي تتطابق تماماً مع الفطرة. وما يصيب الناس من ضلال في التيه وشقاء في الحياة راجع لخروجهم عن تعاليم الإسلام، ولاتطابق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان إلا بأخلاق الإسلام وآدابه، وبقدر ما يسترشد بالإسلام - كما هو في القرآن وسنة الرسول الكريم - بقدر ما يسعد الناس، يقول تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ »[2].

وفي داخل الإنسان - مهما عاند - صوت يهيب به للإيمان، وذلك هو صوت الفطرة، وإجابة العهد الذي أخذه الله على بني آدم، وهم في أصلاب آبائهم، وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم وخالقهم. كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ

(١) زاد المعاد: ج١ ص٢٣.
(٢) هود: ١: ٣.

رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[1].

وفيها: «يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك، وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله، التي فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق الله**...﴾[2].

فإذا قيل: فما المراد بأشهدهم على أنفسهم؟ كان الجواب خلقهم مفطورين على التوحيد، وهذا لو سلم لهم مافطروا عليه، ولم يحدث ما يلوي أعناقهم عنه من شيطان إنسي أو جني (والشهادة تارة تكون بالقول،) كقوله تعالى: «قالوا شهدنا على أنفسنا» وتارة تكون حالا، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ [3]..﴾ كما أن السؤال يكون تارة بالمقال، وتارة يكون بالحال. كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ....﴾[4].

وصوت الفطرة هذا المعبر عنه هنا بالشهادة على النفس والإقرار بالربوبية قد يعلو ويتضح، حتى ينتهي بصاحبه إلى الإيمان والتسليم الشرعيين، حسبما جاء به محمد - ﷺ -.

وقد يوجد في قلب صديء كالأرض السبخة، أو القلب المنكوس، فلا يثمر ثماره، ولا يزهو ضوء الإيمان فيه، وقد يكون سبب تلك الحال الردية النشأة، أو الحسد والبغي، أو الخوف على المتاع...الخ.

وكلها أسباب تهي وتزول إذا سلمت الفطرة، أو تكون رانا يغطي عليها إذا خنق صوت الحق وضاع سلطانه، والذي يتأمل كتب السيرة يجد فيها

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: جـ٢ ص ٦٣، المصدر السابق، ص ٦٤: ٦٥.

(٣) التوبة: ١٧.

(٤) إبراهيم: ٣٤.

مصداق ما قلت، ففيها نموذج الفطرة المسلمة، ونموذج الفطرة التي انحرفت.

ومن المسلمين الذين استجابوا لصارخ الفطرة في قلوبهم فانصاعوا لداعي دين الفطرة محمد - ﷺ -: الصحابي ضماد - رضي الله عنه -، وقد «قدم مكة وهو رجل من أزد شنوءة، وكان يرقى من الرياح، فسمع سفهاء مكة يقولون: إن محمدا مجنون، فقال: آتى هذا الرجل، لعل الله أن يشفيه على يدي. قال: فلقيت محمداً فقلت: إني أرقى من هذه الرياح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء، فهلم، فقال رسول الله - ﷺ - : إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه ، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله. فقال ضماد: أعدهن علي! فأعادهن، فقال: والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشرك، فما سمعت مثل هذه الكلمات. ولقد بلغن قاموس البحر، فهلم يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه[1].

ومنهم: وفد نصارى نجران - وقد وفدوا على رسول الله - ﷺ- وهو بمكة عشرين رجلاً أو قريبا من ذلك، حين بلغهم خبرة من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه - ورجال قريش في أنديتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله - ﷺ - عما أراد دعاهم إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم، لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال! ما نعلم ركباً أحمق منكم. فقالوا له: سلام عليكم، لانجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه.. وفيهم أنزل الله قوله

---

(١) حياة الصحابة: جـ ١ ص ٥٣.

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾.. إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝٥٥﴾[1] ..... [2].

ومنهم: أبو ذر الغفاري، أحد السابقين للإسلام، وقد روى ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما بلغ أبا ذر مبعث النبي - ﷺ - قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني. فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاما ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني بما أردت، فتزود، وحمل شنة له فيها ماء، حتى قدم مكة، فأتى المسجد، فالتمس النبي - ﷺ - ولايعرفه، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل. فرآه علي، فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم، ولايراه النبي -ﷺ- حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه فمر به علي، فقال: أما نال للرجل - أي أما آن - أن يعلم منزله؟ «فأقامه» فذهب به معه، لايسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان اليوم الثالث فعاد عليّ مثل ذلك، فأقام معه، ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟

قال: إن أعطيني عهدا وميثاقا لترشدنني فعلت. ففعل. فأخبره. قال: فإنه حق، وهو رسول الله - ﷺ- فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يقفوه، حتى دخل على النبي - ﷺ - ودخل معه، فسمع قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي - ﷺ - : ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري، قال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً

---

(١) القصص: ٥٢: ٥٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: جـ ٣ ص ١٨.

رسول الله، ثم قام القوم، فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكب عليه، قال: ويلكم! ألستم تعلمون أنه من غفار؟ وأن طريق تجارتكم إلى الشام؟ فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه، وثاروا عليه، فأكب العباس عليه[1].

وهذه الأمثلة لمن سلمت فطرتهم من المعاندة، فلم يلبثوا بعد سماع دعوة الفطرة إلا يسيرا، حتى استجابوا لها.

وأما من صموا آذانهم عن صوت الفطرة فهم كثر، وصفهم القرآن بأنهم كالأنعام، وهم حصب جهنم، وشر الدواب، وقد روى ابن هشام: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - ﷺ - وهو يصلي في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستعمون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كان الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى وصل أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة، عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا مايراد بها، فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا؟ تنازعنا نحن وبنوعبد

---

(١) حديث رقم: ١٦٠٧، من اللؤلؤ والمرجان.

مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذا؟ والله لانؤمن به أبداً، ولانصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه[1].

ومنهم: الوليد بن المغيرة - وهو والد خالد بن الوليد - وزعيم بني مخزوم - «كان من عظماء قريش سمع القرآن مرة فقال لقومه: والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى، فقالت قريش: صبأ والله الوليد، لتصبأن قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فتوجه وقعد إليه حزينا وكلمه بما أحماه. فأتاهم، فقال: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يهوِّس؟ وتقولون: إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط؟

وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهم لا. ثم قالوا: فما هو؟ ففكر قليلا ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فارتج النادي فرحاً، فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدثر مخاطباً رسوله: «ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهوداً، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع أن أزيد كلا أنه كان لآياتنا عنيداً، سأرهقه صعودا، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبروا بتكبر، فقال إن هذا الاسحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر ساحلية سقر»[2].

وهكذا نرى كيف أن الحق متضح اتضاح الشمس في رابعة النهار، حتى اعترف به عتاة قريش في سماعهم من رسول الله، وفي شهادتهم بأن القرآن لا يعلو عليه شيء، ولكنه العناد، يصد الفطرة، ويخنق صوتها.

---

(١) سيرة ابن هشام: جـ ١ ص ٣١٥: ٣١٦.

(٢) ٤٣: ٤٤ من نور اليقين في سيرة سيد المرسلين. والآيات: ١١: ٢٦ من سورة المدثر.

دين محمد ﷺ وحده دين الفطرة

أشار القرآن إلى كفر اليهود والنصاري بانحرافهم عن دين الله الحق، وإشراكهم مع الله غيره، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَاهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

هذا في عبادتهم لغير الله، كذلك انحرفوا عن الفطرة عندما أعلنوا صلب عيسى عليه السلام، فداء لخطايا البشر من آدم إلى يوم القيامة، مع أن العقل السليم يحمل كل إنسان مسؤوليته عن عمله، وكذلك النقل الصحيح: أنه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[2] و﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[3].

وقد امتلأت التوراة والأنجيل بالتناقضات في روايات نسب المسيح والصلب والفداء، كما تناقضت في روايات خلق الكون، ونسب يعقوب إلى إبراهيم. وأثبت العلم - بما لايدع مجالا للشك - أن هذين الكتابين ما كتبا في عصر واحد، ولا بيد واحدة، وأن نسبتهما إلى موسى وعيسى باطلة، وقد لعب الخيال البشري في التوراة ما لعبه الخيال في كتب أخرى، والكتب الناقدة للتوراة والإنجيل كثيرة، كتبها يهود ونصارى مازالوا على ديانتهم، كما كتبها مهتدون منهم إلى الإسلام، وكتبها مسلمون أصلا.

وسوف أذكر هنا بعض النقول التي تثبت تحريف هذين الكتابين، وعدم جدارة أي منهما بإطلاق دين الفطرة عليه. يقول موريس بوكاي: ظلت اليهودية والمسيحية لقرون طويلة تعتبران أن موسى نفسه هو كاتب التوراة،

---

(١) التوبة: ٣٠، ٣١.

(٢) تراجع الصفحات من ٢٦ - ٣١ من: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، لموريس بوكاي - دار المعارف ١٩٨٢م.

(٣) البقرة: ٧٩.

معتمدين على الآية التاسعة من الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية، وهي: (وكتب موسى هذه التوراة). أما اليوم فالكل متفقون على هجر هذا الفرض نهائيا.. وفي القرن السادس عشر أشار كارلتشاد إلى استحالة أن يكون موسى قد كتب بنفسه كيف مات. سفر التثنية الإصحاح ٣٤ من ٥: ١٢.

وهناك دراسات كثيرة، ترفض أبوة موسى على الأقل لجزء من الأسفار الخمسة التي تتكون منها التوراة، كما أثبتت الدراسات التي قام بها ريشارد سيمون بعنوان (التاريخ القديم للعهد القديم) وجاء من بعده: جان استروك، وايغهرون، وايلجن، والأب يغو، فأكدوا ما ذهب إليه، معتمدين على مقارنات لغوية وتاريخية ونقدية)[1].

وإلى التناقض الموجود في التوراة يشير موريس بوكاي قائلا - مشيرا إلى أحبار اليهود -: هم يكتبون التاريخ - إذن - حسب مقتضيات الحال! ص ٢٩ من كتابه السابق. وهذا الكلام هو ترجمة صادقة لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[2].

وإلى التناقض بين التوراة والعلم يشير قائلا: (من زاوية المنطق يمكن أن نتبين عدداً كبيرا من المتناقضات والأمور غير المعقولة، في التوراة. ومنها: رواية الحدث الواحد بروايتين مختلفتين، والتعديلات المختلفة والإضافات اللاحقة إلى النص، والتي دخلت - فيما بعد - في صلب النص عند نسخه مرة أخرى، وإليكم مثالاً لذلك: في سفر التكوين روايتان عن خلق العالم ومراحله، تحتل الرواية الأولى الإصحاح الأول، والفقرات الأولى من الإصحاح الثاني، وهي بناء يتكون من أخطاء من وجهة النظر العلمية، ولا بد من القيام بنقدها فقرة فقرة.

في الإصحاح الأول الآيات من ٣: ٥ وليكن نور، فكان النور، ورأى

---

(١) الإسراء: ١٥.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

الله أن النور حسن، وفصل بين االنور والظلمات، ودعا الله النور نهارا والظلمات ليلا، وكان مساء، وكان صباح اليوم الأول أن الضوء الذي يقطع الكون هو نتيجة ردود أفعال معقدة، تحدث في النجوم، ولكن النجوم - حسب قول التوراة - لم تكن قد تشكلت بعد في هذه المرحلة، حيث إن أنوار السموات لاتذكر إلا في الآية ١٤ من سفر التكوين، باعتبارها مما خلق في اليوم الرابع، ليفصل بين النهار والليل، ولينير الأرض. وذلك صحيح.

ولكن من غير المنطقي أن تذكر النتيجة الفعلية رأى النور، في اليوم الأول على حين تذكر وسيلة إنتاج هذا النور، أي الشمس في اليوم الرابع. فالليل والنهار - باعتبارهما عنصرين ليوم واحد - غير معقولين إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت ضوء نجمها الخاص بها، أي الشمس.

هذا ما يؤكده النقد العلمي للتوراة، أنها لم تكتب بيد موسى، ولا في زمنه، وهي مخالفة للعلم، وقد كتبت في عصور متلاحقة، ولم تكتب دفعة واحدة[١].

فإذا انتقلنا إلى نقطة أخرى نؤكد بها أحقية الإسلام وحده بأنه دين الفطرة، فإننا نجدنا أمام دراسة العقيدة والشريعة والقصص في التوراة، لنؤكد أن بين اليهودية وبين الفطرة النقية بعدا كبيراً.

فمثلا: الإله عندهم يتعب بعد عملية الخلق، فيستريح - تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً - وقد حكى القرآن قولهم ذلك، ورد عليه. يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[٢]. قال قتادة: قالت اليهود عليهم لعائن الله: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه (وما مسنا من لغوب) أي من إعياء، ولاتعب، ولانصب[٣].

---

(١) المرجع السابق ٣٩: ٤١.

(٢) ق: ٣٨.

(٣) مختصر تفسير بن كثير: جـ ٣ ص ٣٧٨.

ومن كذبهم: ادعاؤهم في قصة آدم وحواء. أن الله نهاهما عن الأكل من الشجرة، حتى لايشركاه في صفة المعرفة، وهي من أخص صفاته.

ومنه: زعمهم أن الله قدم وملكين معه، فعرف إبراهيم الله من بينهم.

ومنه: زعمهم أن الإله ينتشي لرائحة الشواء، وعلى مزاعمهم هذه يرد القرآن «لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ»[1].

ومنها: مزاعم حول توزيع الإله لوقته بين مذاكرة الشريعة وشؤون الحكم بين الناس، وتدبير العيش للخلق، واللعب مع الحوت ملك الأسماك.

وقد خلت أسفار العهد القديم من ذكر اليوم الآخر على النحو الذي يقرره الإسلام. فالصدوقيون ينكرون القيامة، ويعتقدون أن المثوبة والعقوبة في الدنيا.

والفريسيون يرون أن القيامة هي نشر الصالحين، ليشتركوا في ملك المسيح، أي في الدنيا أيضاً. وقد ترد الجنة والنار في التلمود، ولكن في صورة خرافية.

فأما شريعتهم فتقوم على التفرقة العنصرية من نواحي عديدة، فالإله الذي يعبدونه هو إله إسرائيل وحدهم، وقد فضلهم على العالمين، وقد ورد ذكر هذا في القرآن الكريم مقرونا بانحرافهم - بعد - ذلك عما سبب لهم تلك الأفضلية، وأن قلوبهم قست كالحجارة أو أشد قسوة.

وهم يباح لهم من الربا ما لايباح لغيرهم، ويحرم عليهم أن يرابي بعضهم بعضا، أو يقتل بعضم بعضا، على حين يباح لهم ذلك مع غيرهم من الشعوب، ويحرم عليهم استرقاق بعضهم بعضا، بينما يباح لهم استرقاق الآخرين.

فأما حديثهم عن الأنبياء: كإبراهيم، ونوح، فحديث خرافة - لاشك في ذلك - ومثله حديثهم عن داود وأوريا الحيثي.

---

(١) الحج. ٣٧.

وهذا كله يدل على أن التوراة نسيج مهلهل، نسجته يد أحبار خلت قلوبهم من تقوى الله، وتشوشت فطرتهم بأقوام يعبدون الأصنام، حتى صنع لهم السامري صنما.

ومن أراد المزيد فليرجع إلى التوراة، وكتب التفسير، والملل والنحل، ففيها الكثير عن معتقدات اليهود وشرائعهم.

فإذا ما تركنا اليهودية ونظرنا في أسباب عدم استحقاق المسيحية لتوصف بديانة الفطرة وجدنا اضطرابا شديدا بين الأناجيل فيما يتعلق بصعود المسيح وقيامته.

يقول بوكاي: «لا متى، ولايوحنا، يتحدثان عن صعود المسيح، أما لوقا فإنه يحدده بيوم القيامة في إنجيله، وبعد أربعين يوما، في «أعمال الرسل التي يقال: إنه كاتبها».

أما فيما يخص «مرقس»، فإنه يشير إليه دون تحديد تاريخه، وذلك في خاتمة تعتبر حالياً غير صحيحة، وعلى ذلك فليس للصعود أي قاعدة كتابية متينة، برغم ذلك فإن المعلقين يتعرضون لهذه المسألة الهامة، باستخفاف لايصدق، ومنهم: تريكو، الذي لم يعر الصعود أي اهتمام في «المعاجم الصغيرة للعهد الجديد».

ويشير الأب كانينجسر إلى استحالة أن يعطي أي كاتب من كتاب الأناجيل لنفسه صفة شاهد العيان، وكما يعتبر الأبوان بينوا وبوامار - الأستاذان بمدرسة الكتاب المقدس بالقدس - التناقض عند لوقا بين إنجيله وأعمال الرسل يرجع إلى حيلة أدبية، وليفهم من يفهم»[1].

والكتاب مليء بالنقد لما جاء في الأناجيل من متناقضات، وأمور غير مفهومة، وغير متوافقة مع العلم الحديث، الأمر الذي يجعلها ملأى بالخيالات والأوهام، التي ترتب عليها شيوع الاستهتار بها، حتى وصل الأمر

---

(١) موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ٦٦: ٦٨ بتصرف.

إلى أن المسيح شخصية وهمية، ذلك لأن العلماء لم يجدوا فيها ما يروي ظمأهم، ولا يتناقض مع معطيات العلم التي بأيديهم.

وكانت النتيجة فصاما نكداً بين العلم والدين، وموجة عارمة من المادية تريد أن تخضع كل شيء للمادة، وتنكر ما وراءها، وذلك رد فعل لعصور من القهر وفرض الخرافة، قامت بها الكنيسة ضد العلم والعلماء، وكان بين رجالها ورجال الاقطاع تشابه كبير، وتناصر في الحفاظ على مصالحها. فقامت ضدها دعاوى العلمانية والمادية والإلحاد، وإذا توافرت في القرآن والعلم أخبار تحريف التوراة والإنجل فإن ما سبق يكون مرتكزا قويا وقويما ينبني عليه أن دين محمد وحده هو دين الفطرة، وأن المسألة لاتبدو تسليما عاطفيا، وإنما قامت دراسات ومقارنات وأبحاث حول القرآن الكريم ومعطياته العلمية، وانتهت بأنه لاتناقض بين العلم الحديث والقرآن، ولو وجد أدنى تناقض لطنطن به أعداء الإسلام، بل إن انعدام ذلك التناقض كان أكبر الأسباب وراء إسلام كثير من علماء أوربا.

ولذلك يقول موريس بوكاي في تلك الدراسة التي انتهت بإسلامه:

«ولقد أثارت هذه الجوانب العلمية، التي يختص بها القرآن الكريم دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد - قط - بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع، ومطابقة تماما للمعارف العلمية الحديثة.

وذلك في نص كتب منذ أربعة عشر قرنا، وفي البداية لم يكن لي إيمان بالإسلام، وقد طرقت هذه الدراسة لنصوص القرآن بروح متحررة، من كل حكم مسبق، وبموضوعية تامة، وقد كانت التعاليم التي تلقيتها في شبابي كلها ضد الإسلام والمسلمين.

وعندما استطعت قياس المسافة التي تفصل واقع الإسلام عن الصورة التي اختلقناها عنه في الغرب، شعرت بالحاجة لتعلم اللغة العربية، حتى أقدر على دراسة الدين الذي يجهله الكثيرون، وحتى أستطيع قراءة القرآن،

وتناولت القرآن، منتبها بشكل خاص إلى الحشد الذي يعطيه عن الظواهر الطبيعية.

لقد أذهلتني دقة التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات، وهي تفاصيل لم يكن ممكنا لأي إنسان في عصر محمد - ﷺ- أن يكوّن أدنى فكرة عنها.

إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق، وعلم الفلك، وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعالم الحيوان، وعالم النبات، والتناسل الإنساني.

وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة، لانكتشف في القرآن أي خطأ، وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنسانا، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟

ليس هناك أي مجال للشك، فنص القرآن الذي نملكه اليوم هو فعلا نفس النص الأول[1].

ويمكن الرجوع لكتابات جارودي ومحمد أسد والغمراوي وعبد الرزاق نوفل، للاستزادة من عدم وجود أي تناقض بين الإسلام والعلم الحديث، ولذا فهو وحده دين الفطرة.

ولا أدل على صدق ماذهبت اليه من شهادات اليهود والنصارى أنفسهم على تحريف كتبهم وعقائدهم، وها هي نقول من أقوالهم. يقول دكتور هربرت لوي اليهودي صاحب كتاب «أديان العالم الكبرى»: وإن هناك عقائد دخيلة سرت لليهودية من فارس وبابل ومصر والهند، ولا سند لها في اليهودية. وأبرز أنها لاتتكلم عن الآخرة. وهم يعتقدون أن الجنة على الأرض والثواب والعقاب في الدنيا، والجنة الأرضية خاصة بهم، وفي سفر الجامعة

(١) المرجع السابق: ١٤٤: ١٤٥ بتصرف.

«ليس للإنسان مزية على البهيم، لأن كليهما باطل، كلاهما من التراب وإلى التراب يعود». . ويلاحظ الباحثون أن رائحة الوثنية واضحة في اليهودية المحرفة، واليهود يعملون للدنيا، لا للآخرة. ويقول جامعو دائرة المعارف الفرنسية تحت عنوان «توراة»: إن العلم العصري، ولاسيما النقد الألماني قد أثبت - بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات -: أن التوراة لم يكتبها موسي، وإنما كتبها أحبار لم يذكروا أسماءهم في عصور متفاوتة، اعتمادا على روايات سماعية، سمعوها قبل أسر بابل.

وإلى هذا التحريف أشار نولدكه في كتابه «اللغات السامية» وفيشر في كتابه «تاريخ أوربا في العصر الحديث».

وأشار الباحثون إلى تزييف العلوم الحديثة، لما ورد في التوراة حول عمر الأرض والشمس والجنس البشري. وتشير أبحاث القسيس الفرنسي «رتشارد سيمون» الذي وضع عام ١٦٧٨ مؤلفا مبتكرا في نقد التوراة سماه: «تاريخ انتقادي للعهد القديم، وأشار فيه إلى جهالة أكثر مصادر العهد القديم، وتحريف الرهبان لها»[١].

وبعد، فإذا كان هذا حال التوراة والإنجيل، فهل هناك أدنى شك في تفرد الإسلام وحده بأنه دين الفطرة؟ حيث تتضح فيه وضوحا تاما فكرة الألوهية والرسالة، واليوم الآخر، وبدء خلق العالم، وبداية الإنسان، وهي القضايا الخمس التي شغلت الفكر الإنساني، ولاتوجد شائبة تشوب نقاء التوحيد، ولاتعكر تصور اليوم الآخر، والرسل قوم يصطفون، ويختارون، ويحفظون ظاهراً وباطنا. وكتاب الإسلام ما فرط في شيء، وهو تبيان لكل شيء، وهو محفوظ بحفظ الله وكلاءته. والأصول التي احتواها هي، هي، منذ نزل الوحي على النبي محمد - ﷺ - وإلى يوم قيام الناس لرب العالمين، ولقد أشار العقاد إلى البعث عند بني اسرائيل، وكيف تطور اعتقادهم فيه بعد موسى عليه السلام، إلى ما يؤكد ما أشرت إليه سلفا من

(١) المخططات التلمودية لأنور الجندي ٢١: ٢٣ باختصار - دار الأنصار بالقاهرة.

تشوه صورة الآخرة عندهم فيقول: «وقد خلت الكتب الإسرائيلية من ذكر البعث واليوم الآخر، فالأرض السفلى أو الجب، أو شيول، هي الهاوية التي تأوي إليها الأجسام بعد الموت، ولانجاة منها لميت، وإن الذي ينزل إلى الهاوية لايصعد».

وأول إشارة ليوم كيوم البعث وردت في الإصحاح الرابع والعشرين من كتاب أشعيا - الذي عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد - وفيه نبوأة عن يوم يطالب فيه الرب جند العلاء في العلاء، ويجمعون جمعا كأسارى في السجن ويخجل القمر، وتخزى الشمس، لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون، وفي إورشليم. وجاءت إشارة أخرى إلى يوم البعث في الاصحاح الثاني عشر من كتاب دانيال - وهي أصرح مما سبق - يقول فيها: «إن كثيرين من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار الأبدي. ولكن يلاحظ أن كتاب دانيال لايحسب من كتب العهد القديم في جميع النسخ، ويرجع تاريخ نبوأة دانيال إلى ما قبل الميلاد بمائة وخمس وستين سنة. وقد كان الثواب والعقاب قبل ذلك نصرا يؤتاه الإسرائيليون على الاعداء، أو بلاء يصابون به على يد الأقوياء، جزاء لهم على خيانة. (يهوا) وعبادة غيره من أرباب الشعوب الأخرى[1].

(١) العقاد: الله ص ١٠١: ١٠٢ كتاب الهلال بمصر.

الفصل الثالث
بعض قوانين الفطرة في الكون والحيوان والإنسان

إن الناظر في القرآن الكريم يرى آيات كثيرة، تأمر بالنظر في خلق الله، والتأمل في ملكوت السماء والأرض، ولا أشك لحظة أن وراء ذلك الأمر حكمة، فليس المقصود من النظر هو الرؤية المجردة، وإنما الرؤية الفاحصة المتدبرة، وماذا نفهم من قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾[2].

إن بعضنا قد يفهم من الآيتين نزول الماء وإنبات النبات، وهي نظرة سطحية، فأما العلم المادي، فيدخل في تفاصيل هندسة الري، ونفوذ الهواء إلى باطن التربة، ووجود الأجنة في الحبات المبذورة، وقدرتها على استخلاص الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون من الجو، والعناصر اللازمة لغذائها من الماء والتراب، والألوان من الشمس، واختلاف شكل النباتات وأوراقها وطعومها وألوانها، إن ذلك كله لايجري عشوائيا، وإنما وفق قانون يحكم النباتات في غذائها وتنفسها وريها، والمقارنة بين ذلك وبين إحياء الموتى أعظم دليل على عدم العشوائية، فالبشر إذا تفرقت خلاياهم، وتحللت وصارت ترابا، لاشك أن إعادة كل مجموعة من الخلايا إلى صاحبها لتكونه مرة أخرى أمر محكوم بقانون إلهي، محيط بكل ما يتعلق بالإنسان فردا فردا،

(١) الروم: ٥٠.
(٢) فصلت: ٣٩.

والله تعالى يقول: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝﴾[1].

وفيما يتعلق بالقوانين الفطرية الحاكمة يشير القرآن إلى حقيقتين هامتين:

الأولى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[2].

والثانية: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[3].

وأولاهما: تشير إلى أن خلق الله يسير حسب قانون لايبدل، وتدخل الإنسان في جزئيات هذا القانون يفقد الشيء المتدخل فيه خصائصه، أو بعضها، كما أشار الحديث الشريف إلى تمام الخلق وعدم نقصانه، وأنه لاجدعاء من البهائم حتى يجدعها أصحابها، وإذا خصي الحيوان كان ذلك إفقادا له لوظيفة النسل، وقد خلق الإنسان والحيوان لينسل، فإذا حدث الخصاء فقد خاصته المودعة فيه حسب فطرته التي أودعها الله فيه.

والثانية: تشير إلى التناسق والنظام في خلق الله، وتشابه الفروع مع أصولها، وفيها يقول الإمام ابن كثير: أي ليس فيه اختلاف ولاتنافر، ولا نقص عيب ولاخلل. ولهذا قال: «فارجع البصر هل ترى من فطور» أي انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيبا، أو نقصاً، أو خللا أو فطوراً... وقال قتادة: أي هل ترى خللا ياابن آدم[4]؟ وقيل: «ماترى في خلق الرحمن من تفاوت» أي من تناقض ولاتباين، ولا اعوجاج ولا تخالف، بل هي مستوية مستقيمة، دالة على خالقها[5].

ثبات تلك القوانين ووجوب التعرف عليها:

أشارت الآيتان الكريمتان إلى أن قوانين الفطرة ثابتة في الإنسان وغيره،

---

(١) ق: ٤.
(٢) الروم: ٣٠.
(٣) الملك: ٣.
(٤) مختصر تفسير ابن كثير: جـ ٣ ص ٥٢٧.
(٥) ص ٧٥٤ من زبدة التفسير، للشيخ محمد سليمان الأشقر، ط أولى وزارة الأوقاف الكويتية.

وهذا بالغ الدلالة على ماعرفناه منها، وما لم نعرفه، وأن علينا الاجتهاد للتعرف على ما لانعرفه، ولنا فيه من الثواب ما لايقل عن ثواب العبادة، إذا لم يزد، وهو بلا شك أزيد (وثبات تلك السنن في الإنسان وغيره، واطرادها دون تخلف، واتساقها فيما بينها، وبين السنن الأخرى الجارية في الكون - دون تنافر - دل عليه أبلغ الدلالة قوله تعالى **﴿لا تبديل لخلق الله﴾**، وقد أكدت المعاني المستفادة مما قبلها، وفسرت الفطرة بالخلق، وأضافته إلى الله سبحانه، فوكدت كل معاني التشريف والتمام والكمال، المنطوية في إضافة الفطرة إليه سبحانه وتعالى.

والتعميم في قوله تعالى: **﴿لاتبديل لخلق الله﴾**، أكد مفهوم الفطرة بكونها فطرة الناس، لأنه شامل لها، ودال من ناحية أخرى على اتساق الإسلام، وفطرة الإنسان مع الفطرة العامة في الكون، فلا تناقض ولاخلف بين الفطرتين، هذا هو التوكيد.

ويشير ذلك المقطع «لاتبديل لخلق الله» إلى أن ما خلقه الله تعالى، خلقه على سنن كاملة، لاتبديل لها، ولاتحويل، فليس في الوجود قدرة غير قدرة الله تتحكم فيه، وإرادة الله شاءت للكون أن يكون على مقتضى حكمة لاتتغير، ولاتتبدل بتبدل الأزمان. والعلم الحديث يقوم وجوده على هذا القانون الإلهي، قانون «لاتبديل لخلق الله».

إذ العلم وطريقته النظرية والعملية التجريبية متوقفة على اتساق الفطرة، واتصاف سننها بالاطراد والثبوت. وأمر تمام اتفاق الإسلام، مع فطرة الإنسان والكون هو من الأهمية والجدة للإنسانية جميعا، بحيث يحتاج إلى كل التوكيد، ليعلم ذلك المسلمون وغيرهم، وقليل منهم من يعلم «ولكن أكثر الناس لايعلمون»[1].

وإذن فلا صلاح ولا فلاح ولاحضارة ولاتقدم إلا إذا فهمت أسرار

---

(١) الإسلام في عصر العلم: ٢٢: ٢٣.

الفطرة وقوانينها، ولاثبات للتدين في نفوس الناشئة وغيرهم إلا إذا اتفق تدينهم مع فطرة الكون العابد الساجد المسبح في كل خلق منه. وصدق الله العظيم «سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ»[1].

فإذا لم يتبينوا الحق فلن يتبينوا إلا الضلال، وعلم الآيات في الأنفس والآفاق هو علم لايعرف وطنا ولاجنسا، وهو العلم الحديث بكل ما رحب، مما علمه الناس، وما لم يعلموه «ولقد كانت المعرفة في سوالف الدهور، متشعبة السبل، بعيدة المنال، قليلة المحصول، غير أنها منذ قرنين أو ثلاثة، تعبدت طرقاتها، وترابط رجالها، فما عادوا فرادى ، وتيسرت أدواتها للبحث والتجريب والتدوين، وذلك هو العلم الحديث، علم هذا الكون بكل ما فيه.

وعلم هذا حاله - لاشك - يكون أثبت قاعدة يستقر عليها اعتقاد وإيمان. خاصة، وهو علم متطور، يأتي في غده بما لم يأت به أمسه، فلا غرابة أن الباحث في العالم إذا قصد كشف بعض ستر ذا الكون إنما يكون أكبر عابد، وأكرم عاكف قائم، أو راكع ساجد.

إن من يريد معرفة حقيقة الخلق، والاستدلال بها على الخالق، هو في صنوف العبادات فوق الأنماط جميعا، لأن عقله يتحرك نحو الله عن علم، وقلبه يمتلىء بمعرفته عن معرفة، وليس هذا بيسير فكما يعرق الجسد في تحصيل الرزق، يكد العقل في تحصيل العلم، إن شبع الجسوم شركة في كل الأحياء، فأما شبع الأرواح فقاصر على العقل المفكر في الإنسان، ولهذا حضَّنا الله على التذكر والتفكر، والتأمل والتدبر، والنظر في المخلوقات. لأن الإعجاز في الكون كثير، ودلائل الوحدة أكثر[2].

---

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) د. محمد فتحي عوض الله نشأة الكون ووحدة الخلق: العدد ٤٨٦ من سلسلة اقرأ عن دار المعارف.

طرق اكتشاف قوانين الفطر

المفطورات إما خاضعة للتجريب المعملي، أو غير خاضعة له، ولكل منهما قوانين تحكمه، ويمكن اكتشافها، ومعرفة السنن الحاكمة لها عن طريق الملاحظة، واستقراء أحولها، أو التجريب المعملي، ثم انتزاع كل قانون من مجموعة الوقائع الصادرة عنه، وهي من باب واحد، ويشبه إلى حدّ كبير قياس المعلولات لعلة واحدة بعضها على بعض، ما دامت العلة فيها جميعا واحدة.

ولاكتشاف تلك القوانين طريقان:

«الأول: الاستقراء، إذا كان عدد الوقائع كبيراً، والقانون في ذاته بسيطا».

والثاني: التلمس، إذا كان عدد الوقائع قليلًا، أو كان القانون خفيا، أو أكثر تعقيدا.

ومن أمثلة الأول: أن الكيماويين وجدوا أن ملح الطعام مهما اختلف مصدره أو طريقة تحضيره يتركب دائما من نفس العناصر، متحدة مع بعضها، بنفس النسب في الوزن، فاستنتجوا أن هذا قانون طبيعي للمركبات، وسموه قانون التركيب الثابت، ونصه: كل مركب كيماوي يحتوي دائما على نفس العناصر وبنفس النسب وزنا.

أما طريقة التلمس: فهي أصعب من الاستقراء، ويراد بها الاجتهاد في الإتيان بتفسير لوقائع القبيل الواحد، بحيث لاتشذ عنه في بابه واقعة، فإذا وفق العلماء في اجتهادهم هذا ووصلوا إلى تعليل أو تفسير واحد لتلك الوقائع - يثبت على الزمن، رغم تكاثرها - بالبحث والتنقيب حكموا أن ذلك التعليل أو التفسير قريب من الحقيقة أو القانون الفطري المنشود.

وهم لايسمونه قانونا فطريا إلا إذا بلغت الوقائع المفسرة به من الكثرة الكاثرة مبلغاً لايدع مجالا للشك في عمومية ذلك التفسير.

وطريقة العلم في تلمس قوانين الفطرة من الوقائع المشاهدة تتلخص فيما يأتي:

أولا: يؤتى بفرض مفصل مقدر على وقائع القبيل الواحد، بحيث يفسرها جميعاً، مثل الجاذبية والحركة في الكواكب.

ثانياً: يختبر هذا الفرض عمليا، لينظر أصحيح هو أم غير صحيح؟

وهذا الاختيار ضروري، لأن الوقائع تكون في الأول قليلة، يجوز تفسيرها بأكثر من فرض.

كما يغلب ألا يقع الإنسان في محاولاته الأولى على التفسير الصحيح.

والاختبار يكون بجعل هذا الفرض الجديد مقدمة تضم إلى أي حقيقة معروفة مناسبة، ويركب منهما قياس يؤدي إلى نتيجة جديدة، ثم تختبر هذه النتيجة بإجراء تجارب عملية، يعرف بها إذا كانت النتيجة منطبقة على الواقع أو غير منطبقة.

فإذا وجد أنها منطبقة ازداد عدد الوقائع المفسرة بالفرض واقعة، وازداد الفرض رجحانا، ولايزال يختبر عن طريق التجارب حتى تبلغ الوقائع المفسرة به من الكثرة مبلغا يجعلنا نرجح كثيراً صحة هذا الفرض، فنسميه نظرية، ونستمر في امتحان النظرية - بنفس الطريقة - حتى تبلغ الوقائع المفسرة بها من الكثرة ما يجعلنا نوقن بأنها قانون عام.

فأما إذا لم تؤيد النتيجة المستنبطة من ذلك القياس الجديد، فإن ذلك يكون دليلا على عدم صحة الفرض الجديد، في صورته التي هو عليها، وعندئذ يقوم العلم بإدخال تعديل على الفرض، ليوفق بين الفرض والعلم، حتى يشمل النتيجة الجديدة، فإذا لم يمكن نبذ الفرض أو النظرية وجيء بفرض أو نظرية أخرى تختبر بنفس الطريقة، وواضح أن أي فرض يؤتى به يجب أن يكون قابلا للتمحيص العملي، لأنه الطريق الوحيد للتأكد من صحة الفرض، كما أن الفرض إذا كان قابلا للتمحيص العملي ينفع، ولو بتأديته إلى اكتشاف الحقيقة الجديدة التي تؤدى إلى نبذه، فأما الفرض الذي لايقبل التمحيص العملي عن طريق التجربة فإن العلم لا يأبه له، ولاينظر فيه[1].

---

(١) الإسلام في عصر العلم: ص ٧٠: ٧٢ بتصرف.

ويمكن التمثيل له بأن كل خلايا الجسم تتجدد بعد فنائها ما عدا الخلايا العصبية، فهذا لايصلح قانونا، وإنما يصح، كل الكواكب تتحرك، وسوف نجد انطباقه على جميع الكواكب.

من القوانين العامة للمفطورات

أشارت آية من سورة الأعلى إلى الخلق والتسوية وأخرى إلى التقدير والهداية، وهذا البيان القرآني مع آيات أخرى يدل على عموم ما يحكم الكون من قوانين تؤكد وجود الفاطر - جل وعلا - ووحدته.

ومن هذه القوانين العامة: التجاذب والحركة والنمو والإحساس والتكرار والتطور. وكلها محكومة بتوجيه سديد، وتنظيم رائع، وهدف من وراء كل نظام، وثبات يجعلها لاتحيد عن أنظمتها التي نظمت بها، وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى شيء من هذه القوانين، فعن الحركة يقول عز وجل: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1]. ويقول: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

وفي القرآن كثير من هذا القبيل:

فإذا تأملنا بعض ما كتبه علماء اختصاصيون في مجال الكونيات مما كشف عنه العلم فالقي ضياء على معاني جديدة تفسر بها الآيات، أو تزيد تفسير الأقدمين وضوحاً، وجدنا ما يؤكد ما فهمناه من التقدير والحساب في

(١) النمل: ٨٨.
(٢) يس: ٤٠.

كل شيء، فعن التجاذب وحركة الذرات نقرأ: «التجاذب - فكل ما في الكون يتحرك، حتى ما يظهر أمامنا ساكنا كشف العلم أنه يتحرك أشد الحركة، حتى الأحجار الصم التي تتبدى ساكنة، ذراتها من داخلها ميدان حركة دائبة».

ومن مسببات الحركة: التجاذب، وهو شامل لكل ما في الكون من أرض أو سماء، وهو صغير على كوكبنا حتى لانكاد نحسه، وذلك لصغر الكتل على سطح الأرض بالقياس إلى الأجرام الأخرى. ونحن كبشر سجناء الجاذبية لانفتك منها إلا بالوسائل العلمية، وحيث الكتل والحجوم هائلة في السماء تكون الجاذبية عارمة، وهي تمسك أجرام السماء حتى لاينفرط عقدها، يقول تعالى: ﴿* إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾[1].

وهذه الوسيلة الفذة لانتظام الكون ودورانه صادرة قطعا عن وحدة في التصميم، ووحدة في الإرادة. ولو طلبت برهانا على وحدة الخلق في هذا الوجود وانتظامه في سلك واحد لكان من أول البراهين قانون هذا التجاذب الذي يعمل في صمت وخفاء، في أرض وسماء، في هواء وماء، في كل ذي حياة وكل جماد، قانون واحد ينتظم الكون جميعا، وبدونه ينفرط الكون. ومدبر الكون - سبحانه - لم يرد له انفراطا، فخلاف هذا القانون هلاك. ومثال ذلك:

لو أن رجلا يتحدى قانون الجاذبية فيمشي من فوق سطح بيت إلى الفضاء فإنه يهوي فتندق عنقه، وهكذا كل شيء في الكون، يسير وفق قانون يدل على أنه لابد من خالق واحد ، وإلا لاختلفا في سنن القوانين.

إن ثبات القوانين في كل زمان ومكان هو الأصل الذي جرت عليه الأحداث في نظام هذا الكون وتنظيمه.

٢ - الحركة في الذرات:

لقد عرف الإنسان بناء الذرة من لبنات ثلاث، هي: الإلكترون،

---

(١) فاطر: ٤١.

والبروتون، والنيوترون، وعرف أن البروتون هو اللبنة التي من مثلها تتألف نواة الذرات فيما تتألف، والبروتون لفظ اغريقي، معناه: الشيء الأول. وما أصدقه اسما، وأدقه معنى.

وحول هذا الشيء الأول توجد الإلكترونات سالبة الشحنة الكهربية أغلفة تدور حول النواة، وقد يكون في غلاف الذرة إلكترون واحد، أو اثنان، أو عشرة، أو عشرات، ولكنها تدور جميعا حول نواة الذرة في مدارات بعضها ضيق، وبعضها واسع، كما تدور الكواكب السيارة حول الشمس، والكل بعد ذلك في حركة.

ونواة الذرة - على الرغم من أن كتلة الذرة كلها تتركز تقريبا فيها، حيث الإلكترونات لاتكاد تزن شيئا - لاتكاد تشغل حجما في الذرة، فقطر الذرة أكبر عشرين ألف مرة من قطر النواة، فالذرة - إذن - بها فضاء كبير، وهي فارغة كثيرا، إذ المادة في تصميمها وصميمها لاتكاد تحتل من هذا الوجود شيئا. ذلك التصميم في الذرة هو كتصميم المجموعة الشمسية تماماً، ثم كذلك الكون بأجمعه، فيا سبحان الله! لقد تبدت وحدة التصميم من أصغر لبنات الكون إلى أكبر وحداته، والقوى التي تربط تلك اللبنات الأوائل قد ردت أيضاً إلى أصل واحد، كما يقول أينشتين أكبر علماء الكونيات: إن المادة والقوة شيء واحد، بل إن المادة والقوى المحركة والجاذبية شيء واحد، وسبحان الله مرة ثانية! وإنها لوحدة عظمى تجري في الكون أجمع، إنها وحدة الخلق الدالة على وحدة الخالق[1].

فأما النمو والإحساس فكل ما في الكون محكوم بقوانين للنمو والإحساس، حتى الجمادات والنباتات، فهناك عوامل تكون الجبال والصخور، وهناك عوامل اضمحلالها، وهو ما يطلق عليه عوامل التعرية، وكذلك النباتات لها قوانين تحكم نموها وبقاءها وفناءها وارتواءها، وكيف

(١) د. محمد فتحي عوض الله: نشأة الكون ووحدة الخلق: ١٦٢ - ١٦٣، بتصرف العدد ٤٨٦ من سلسلة اقرأ. تصدر عن دار المعارف بالقاهرة.

يتواءم المخلوق مع البيئة ببردها وحرها، بهيئته: ضخامة ونحافة، طولاً وقصراً.

وتلك القدرة على التكيف أحيانا تكون تلقائية، تفعل دون فكر، وإنما يفعلها الإنسان غرزيا، وكذا بعض الحيوانات «والإحساس يعبر عن قدرة الكائن الحي على تكييف نفسه للتغيرات التي تطرأ على بيئته» وقد سجل حديثا مثال من المنطقة القطبية، فقد حاول رجل الانتحار بالمشي عاريا في هذا الجو القارس، ولكن التعرض للبرد جعله يرتجف بعنف حتى تولدت في جسمه حرارة حمته من أن يتجمد، وبعد يومين في هذا الجليد أقلع عن الانتحار، وعاد إلى المعسكر، ومن أمثلة الإحساس في الحيوانات الراقية والنباتات يمكن أن نذكر العديد من الصور، فإنبات النباتات وإزدهارها تسيطر عليه تغيرات موسمية، تطرأ على طول الليل والنهار، وأسماك السلمون تعود إلى الأنهار التي أفرخت فيها، توجهها في الظاهر حاسة كيماوية تشبه الشم، كما تجد الطيور المهاجرة والقواقع طريقها لآلاف الأميال في البر أو البحر، وهي تتبع غريزة غير معروفة، ولكنها لاتضل طريقها أبداً، وإن التغيرات في درجة تركيز الماء والمواد في جسم الحيوان تثير الإحساس فيه بالجوع أو العطش، كما أن العدوى تحدث الحمى التي تساعد على إنهاء العدوى[1].

الفاطر القادر لا الصدفة

جاء في آية جريان الشمس قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2]. وبعدها بآية واحدة: **﴿وكل في فلك يسبحون﴾**.

ومما يسترعي الانتباه ختام الآية **﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾** إذن

---

(١) ج.هـ.رش - فجر الحياة ص ١٥ ترجمة د. عبد الحليم منتصر وآخرين، ط أولى ١٩٦٠ عيسى الحلبي بالقاهرة.

(٢) يس: ٣٨. * تختلف مدة الدوران من ٢٥ يوما عند خط الاستواء الشمسي إلى ٣٥ يوما عند قطبيها ص ١١٠ من نشأة الكون د. محمد فتحي عوض الله.

فالجري من الشمس تقدير لا جزافاً، تقدير في المسار وفي السرعة، وفي الحركة وكيفيتها، وفي الإشعاع والحجم والوزن «وتضم مجرتنا ثلاثين مليارا من النجوم، وتسمي درب التبانة، أو الدرب اللبنية، وفي الكون منها خمسائة ألف سديم، وتسري نجومها في مجريين مختلفين متداخلين دون صدام؛ وتدور الشمس على محورها مرة كل ستة وعشرين يوما، ويبلغ نورها٣٠٠٠ مليون مليون مليون شمعة. وهي أكبر من الأرض مليون وثلثمائة ألف مرة، ووزنها قدر وزن الأرض ٣٢٢ ألف مرة».[١].

ولعل هذا يعطينا السر في التعبير بـ «العزيز العليم» فالعزيز هو الذي لايغلب، والعليم هو الذي لاتفوته شاردة أو واردة من حال شيء من خلقه، والمتأمل في خلق المخلوقات من الكواكب يتأكد من وجود قوة عاقلة من وراء ذلك الكون، ساهرة على تدبيره، لاتأخذها سنة ولانوم. والعلم التجريبي يمدنا بمعلومات تؤكد وجود القوة العاقلة وراء هذه المخلوقات، وفي هذا يقول تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾[٢].

وكما يقول كريس موريسون: (لا بد أن يكون في الطبيعة نوع من التوجيه السديد، وإذا صح هذا فلا بد من وجود هدف. وبعض علماء الفلك يذكرون بعض المعلومات الدقيقة عن هذا التوجيه السديد، فيقولون: إن فرص تقارب نجمين تكفي لإحداث مد خفاق هدام هي في نطاق الملايين، وفرصة التصادم وراء الحسبان - أي في حكم العدم أو المستحيل.

«والأرض مكونة من العناصر التي توجد في الشمس، وهذه العناصر

(١) الشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان ص ٣٠٦ - ٣١٠، باختصار ط ثالثة ١٩٦٩ دار العربية بيروت.
(٢) المؤمنون: ٨٥: ٨٩.

مقسمة على الكرة الأرضية بنسب مئوية معينة، أمكن التحقق منها لدرجة مقبولة فيما يتعلق بالسطح.

وقد قسمت الكرة الأرضية إلى أقسام ثابتة. وحدود حجمها وسرعتها في مدارها حول الشمس هي ثابتة للغاية، ودورانها حول محورها قد حدد بالضبط، لدرجة أن اختلاف ثانية واحدة في مدى قرن من الزمان يمكن أن يقلب التقديرات الفلكية، وتأمل اختلاف ثانية واحدة.

ولو أن حجم الكرة الأرضية كان أكبر مما هو أو أصغر، أو لو أن سرعتها كانت مختلفة عما هي عليه لكانت أبعد أو أقرب من الشمس مما هي، ولأثرت هذه الحالة على الحياة تأثيراً هائلاً، بما فيها الإنسان، لدرجة تمنع الحياة فوقها.

وتدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل أربع وعشرين ساعة بمعدل نحو ألف ميل في الساعة، والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في نهار واحد، كما يجمد الليل كل نبت في الأرض.

إن درجة حرارة الشمس عند السطح ١٢,٠٠٠ درجة فهرنهايت، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها بالدرجة التي تكفي لتمدنا بالدفء لا بأكثر منه، وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب وتغيرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها، ولو زادت درجة الحرارة على الأرض بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة فإن كل نبت يموت، ويموت معه الإنسان حرقا، أو لو قلّت لمات تجمدا.

والكرة الأرضية مائلة بزاوية قدرها ٢٣ درجة، ودواعي ذلك هي:

أنها لو لم تكن مائلة لكان القطبان في حالة غسق دائم، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالا وجنوبا، مكدسا في طريقه قارات من الجليد، وربما تكونت صحراء بين خط الاستواء والثلج، وفي هذه الحالة كانت تنبعث أنهار من الجليد، وتتدفق خلال أودية إلى قاع المحيط المغطى

بالملح، لتكون ملاحات مؤقتة من الملح الأجاج، وكان ثقل الكتلة الهائلة من الجليد يضغط على القطبين، فيؤدي إلى فرطحة خط الاستواء أو فورانه، - حيث تخرج المواد المنصهرة في شكل براكين - كما أن انخفاض المحيط يقلل من هطول الأمطار، مما يترتب عليه عواقب وخيمة.

ولا يقتصر الأمر في الدلالة على الفاطر على هذه الابداعيات في الشمس والأرض - فقط - حول وضع الأرض من الشمس وميلانها وتوزيع البحار والجبال عليها وسيرها سيرا معتدلا لا بطء فيه ولا سرعة. حسب قدر موزون ومحسوب، وإنما انظر كيف أحيطت الحياة عليها بضمانات تضمن استمرارها، ولا تحرمها من أسباب دوامها حسب معادلة لا تشذ ثانية، ولا تنحرف ملليمترا. فلو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه الآن بمقدار بضعة أقدام لما امتص ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة للنبات، وهناك احتمال بأن قشرة الأرض والمحيطات قد امتصت كل الأوكسجين وأن ظهور الحيوانات التي تستنشق الأوكسجين قد تأخر انتظارا لنمو النباتات التي تلفظ الأوكسجين، وأن الحساب الدقيق قد يجعل هذا المصدر للأوكسجين في حيز الإمكان، ولكن مهما كان مصدره فإن كميته مطابقة تماما لاحتياجاتنا.

ولو كان الهواء أرفع كثيرا مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثانية، وفي إمكانها إشعال كل شيء قابل للاشتعال، ولو كانت تسير ببطء رصاص البندقية لكانت العاقبة مروعة. أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل - يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاص تسعين مرة - كان يمزقه إربا من مجرد حرارة مروره.

إن الهواء سميك بالقدر اللازم لضبط مرور الأشعة ذات التأثير الكيماوي التي يحتاج إليها الزرع والتي تقتل الجراثيم، وتنتج الفيتامينات دون أن تضر بالإنسان إذا عرض نفسه لها لمدة أطول من اللازم، وعلى الرغم من

الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان.

وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من المادة، أي المحيط الذي استمدت منه الحياة، والغذاء، والمطر، والمناخ المعتدل، والنباتات، وأخيرا الإنسان نفسه. فدع الذي يدرك ذلك يقف في روعة أمام عظمته ويقر بواجباته شكراً لله[1].

من آيات الله في فطرة الإنسان

لا تقتصر آيات الله في الإنسان على جسمه وما أودع فيه من أجهزة وغدد هي في حد ذاتها آية من آيات الله سبحانه وتعالى، ولكنها أشياء يشترك معه فيها كثير من الحيوانات، مع بعض الاختلافات اليسيرة، ومن الآيات الإلهية التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان: غريزة الزوج، فهي عند الحيوان تتجه - أصلا - إلى الحفاظ على النوع، ولحظة إشباع غريزي. ثم لا اقتراب من الأنثى التي حملت بعد ذلك. لقد أدى دوره وكفى.

في الأسرة والمجتمع:

فأما عند الإنسان فكلا الشخصين يكمل الآخر ﴿* هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2]. وهناك حنين أزلي، ونزوع فطري، لا يطفئه ولا يسكن قلقه إلا لقاءه مع مكمله على حسب شرع الله، وعلى المودة والرحمة: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[3]. (وليس السكن هو الشهوة الحيوانية، فتلك شركة بينه وبين الحيوان، ولكنه ألفة بين المرء وزوجه، تجعل النفسين نفسا واحدة)[4].

---

(١) المصدر: ٥٢: ٥٨ بتصرف من العلم يدعو للإيمان.

(٢) الأعراف: ١٨٩.

(٣) الروم: ٢١.

(٤) البهي الخولي: في آدم ص ١٦٩، مكتبة وهبة ط ثالثة ١٩٧٤ بتصرف.

وهذا الميل من كل من الزوجين للآخر يشد بنيان البيت المسلم، ويجعل لكل منهما حقوقا لدى الآخر، عليها تقوم الحياة، وبها تسمو، وفي كل من الطرفين من مؤهلات الفطرة ما يجعل الآخر يتجه إليه بكل كيانه، ففي الرجل القوة والحزم، وفي المرأة الحنان والرحمة والاحتشام، وكلها مما يغري الزوج بها، وجمال الرجل غير جمال المرأة، ولذا فهي لا تنظر إلى ما في جسمه من جمال مثلما ينظر هو إلى ما في جسمها من جمال، فجمال الرجل في رجولته، وجمال المرأة في أنوثتها، والذي أودع في كل منهما خصائصه هو الفاطر الجليل سبحانه وتعالى.

ويتساءل المرحوم الشيخ أبو الأعلى المودودي عن تأثير الجاذبية الجنسية في إنشاء التمدن الإنساني فيقول: ما العلة لكون الفاطر سبحانه وتعالى قد جعل حظ الإنسان من الميلان الجنسي أكثر من كل ما سواه من الأنواع، وأعد له من المحركات ما لم يعد لسواه؟ هل ذلك لتوفير اللذة والمتعة للإنسان؟ لا. لأن الفطرة لم تجعل اللذة والمتعة شيئا مقصودا لذاته، وإنما هي حافز للإنسان والحيوان عليه، ليقوموا بهذا العمل شاعرين أنهم يحققون مصالحهم، لا مصالح غيرهم، فتأمل الآن ما هو المقصود الأسمى الذي ترمي إليه الفطرة في هذا الأمر؟ إنك مهما فكرت لم تفقه إلا أن الفطرة تريد للإنسان - بخلاف سائر الأنواع - أن يتحضر ويتمدن.

ولهذا السبب وحده وضع الميل الجنسي الذي لا يقتصر على مجرد المعاشرة الجنسية، بل يتطلب عشرة دائمة وصلة قلبية، وتعلقا روحيا قويا، ولهذا السبب كانت قوة الميل أضعاف أضعاف الرغبة في المعاشرة الجنسية، ولو أن الإنسان يأتي وظيفته الجنسية بعشر ما فيه من شهوة ونزوع لتوقف قلبه، وباد من شدة الجهل المبذول، وهذا دليل على ما يريده الفاطر من ثبات العلاقة بين النوعين واطرادها، فهي قبل وبعد المعاشرة قائمة وباقية وثابتة.

ولقد زودت المرأة بالحياء والاحتشام والصدود والامتناع أكثر مما في سائر الحيوانات، ليكون ذلك كالمغناطيس الذي يبقي على علاقة الرجل بالمرأة، فلا تنتهي بمجرد الوصال الجنسي.

ولهذا خلق الطفل الإنساني أضعف وأعجز وأحوج إلى حضانة طويلة من سائر الحيوان، فيحتاج إلى مدة طويلة حتى يعتمد على نفسه، وهذا دليل آخر على أن علاقة الرجل والمرأة تحملهما على التعاون على إنشاء جيل آخر.

ولهذا أيضا كان الإنسان أحنى على أولاده من غيره، فالحيوانات تفارق أولادها بعد أن تربيها مدة قليلة، ثم تنقطع الأسباب، حتى لا يعرف بعضها بعضا. أما الإنسان فيمتد حبه لولده إلى ولد ولده، حتى ليحب أولاده أكثر من نفسه، فيهيىء لهم العيش الطيب.

وما كانت الفطرة لترمي من وراء ذلك إلا إلى رابطة أبدية، تتخذ وسيلة لإنشاء العاقلة، ثم تمضي هذه السلسلة - من حب الأقارب والأدنين - فتربط أسرا كثيرة بالتصاهر، حتى يشيع الحب والأحباء، فيحمل الناس على التعاون، وبذلك يقوم نظام التمدن.

وبهذا يتضح أن الفاطر قد هيأ لتعزيز ذلك النظام وتقوية أسبابه ومحركاته في كل جوانب هذا الكون على نطاق واسع أساسا للتمدن، قصد منه صرف الفردية إلى الجماعية، فمن هذا الوصل بين الرجل والمرأة تكون بداية الحياة الاجتماعية.

فمسألة العلاقة بين الرجل والمرأة هي في الحقيقة أساس التمدن، فيتوقف على حلها الصحيح أو الخاطيء صلاح التمدن الإنساني أو فساده[1].

في ملكات الإنسان وأجهزته

يعتبر الإنسان كائنا غير عادي، ولذا خص بالخلافة والسيادة والرئاسة على جميع المخلوقات في هذه الحياة، وقد احتلت فطرته المحل الأول في

(١) أبو الأعلى المودودي في الحجاب، ١٣٧ : ١٤٢، بتصرف، ط مؤسسة الرسالة ١٩٧٨م.

آية الفطرة، سواء أكانت الإسلام أم الخلقة، يقول تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1].

وقد تميز عن جميع المخلوقات في جسمه وخلقه، وبدئه ونهايته ومآله. إنه مخلوق لاتنتهي علاقته بالحياة عند الموت، وإنما هو مرحلة تعقبها مرحلة، قد تكون أنعم، وقد تكون أشقى.

ولذلك يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]. وحسن تقويمه يشمل عقله وجسده وعاطفته، وجميع ما يتعلق بحياته. ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[3]. كرمهم على ماذا وبماذا؟ كرمهم على سائر المخلوقات، وأكرمهم بالعقل القادر على الفكر المتفتق عن الحيلة، المستجيب للحاجة، يقول الإمام ابن كثير: (يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها. فهو يمشي قائما منتصبا على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله، وينتفع به، ويفرق بين الأشياء وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية[4].

وهذا العقل المودع في الإنسان يجبر بقوته ضعف الإنسان البدني عن كثير من الحيوانات، ولو كان للحيوان مع قوة جسده عقل ما استقامت الحياة، وهنا يتفق علم الحياة مع الدين في أن خصائص الإنسان هي التي أهلته للسيادة «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً»[5].

وقد كانت قدرة الإنسان على الرمز عن حاجاته بالإشارات والإيماءات والكلمات والرسوم، وما يظهر على وجهه من علامات الجزع أو الخوف أو الفرح أو الخجل من أكبر الأشياء التي ساعدت على إيجاد تقاليد تختص

---

(١) الروم ٣٠.
(٢) سورة التين آية ٤.
(٣) الإسراء: ٧٠.
(٤) مختصر ابن كثير: جـ ٢ ص ٣٨٩.
(٥) البقرة: ٣٠.

بالإنسان دون غيره، مهما اختلفت أجناسه، وتباعدت أقطار الأرض التي يعيش عليها، وهو متفرد في تفكيره إذا أصاب أو أخطأ، تحرر أو قلد، مرن فكره أو جمد.

ومما سبق نستنتج أن أهم الخصائص النفسية التي يتميز بها الإنسان هي:

١ - قدرته على التفكير.

٢ - توحد عملياته العقلية، فهي ليست منقسمة انقسامها عند الحيوان.

٣ - انتشار الوحدات الاجتماعية من القبيلة إلى الشعب، إلى الأمة. ووجود تقاليد لكل صنف منها تختص به، وأخلاق تحكمه، تلقتها البيئة أو المدرسة، ويتوارثها الخلف عن السلف، وهو وحده الذي يتميز بعالمين، عالم الروح وعالم المادة، على خلاف الملائكة والحيوانات. فالملائكة لهم عالم واحد، هو عالم الروح، والحيوان له عالم واحد، هو عالم المادة، وتلك الروح إلى الآن لا يعرف كنهها أحد فهي ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[1]، لايعرف أحد كيف يأتي، ولا كيف يذهب، اللهم إلا من خلال الدين، وقد جلت أن تشرح، أو أن تدخل المعمل، وهذا دليل على عظمة الفاطر الذي قدر على ما لم يقدر عليه غيره، وعرف من أحوال المفطورين ما يلهث الناس وراء معرفة قبس منه، ولهذا الجانب السماوي نجد الخلق يشتد شوقهم إلى الرب، وفرارهم إليه عندما تلفهم الخطوب وتنزل بهم الكوارث، فيسرعون سراعا إلى ساحته ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2] ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾[3].

والمنهج القادر على إشباع رغبات الإنسان جسداً وروحاً، فردا

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) الذاريات: ٥٠.

(٣) الشعراء: ٧٧.

وجماعة، أمة وشعبا، عاطفة وعقلا، هو منهج الله، فاطر الفطرة، ومدبرها، وحاكمها بقوانينها المبثوثة في الوجود.

ما الإنسان؟:

سؤال تحتاج إجابته إلى دراسات كثيرة، هل هو الإنسان الناطق؟ أم العاقل؟ أم المعتقد؟ وهل هو الجسم أو الروح؟ أو المزيج المكون منهما؟ والذين يحبسون أنفسهم في المادية يرخصون قيمة الإنسان فالجسد المادي رخيص جدا، ومكوناته لاتساوي أكثر من فلوس زهيدة، ولو أننا جئنا بإنسان زنته مائة وأربعون رطلًا وحللناه لوجدناه يحتوي على العناصر الآتية:

١ - قدر من الدهن يكفي لصنع سبع قطع من الصابون.

٢ - قدر من الكربون يكفي لصنع سبعة أقلام رصاص.

٣ - قدر من الفسفور يكفي لصنع رؤوس عشرين ومائة عود من الثقاب.

٤ - قدر من المغنيسوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات.

٥ - قدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه.

٦ - قدر من الجير يكفي لتبييض بيت للدجاج.

٧ - قدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التي تسكن شعره.

٨ - قدر من الماء يملأ برميلًا سعة عشرة جالونات.

وثمن هذه الأشياء لا يساوي أكثر من مليمات أو قروش أو فلوس قليلة.

فهل هذه فعلًا قيمته؟ الجواب: لا. ثم هل التحليل السابق هو الإنسان بعقله وعواطفه وروحه وأجهزته السمعية والبصرية والعصبية بقلبه وبيديه وبرجليه؟. . . . الخ.

إن الإنسان كائن معقد شديد التعقيد في تركيبه العضوي، وتركيبه

العقلي، وتركيبه الروحي، كما هو معقد في أوجه نشاطه المختلفة التي لايعرف أحد حتى اليوم طبيعتها، ولا حقيقة الارتباطات بينها، وكل ما أمكن دراسته هو ملاحظة ظواهرها وسطوحها.

وهذا التعقيد يتجلى في كل خلية من خلايا جسمه التي لاتحصى، وحتى هذه اللحظة لم يكشف أحد سر تكوين الخلية، ولو عرفت عناصرها المادية، فإن عنصر الحياة فيها مجهول الكنه والكيفية، ولن تعرف أسرارها إلا بمعرفته. وهي تتصرف كما لو كانت كائنا عاقلاً يدرك وظيفته المقبلة تماما، كما يدرك دوره مع بقية الخلايا، ويمضي في طريقه مهتديا، لا يضل أبداً في أداء دوره في دقة وإصابة لايتمتع بها العقل البشري نفسه[1].

وهذا يفرض على الناس أن يسجدوا لله الفاطر شكرا، وأن يتابعوا مسيرة محاولة الكشف عن أسرار الفطرة في الإنسان، وهم ما عرفوا منها إلا القليل، ومازالت أمامهم أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات قد يختصرها المؤمن بقوله - كما قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[2] أو قد يمضي مع البحث ليؤكد عظمة الله في الإنسان، وهو بهذا يمتثل أمر ربه القائل: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[3].

وكما قال القائل:

وتـــزعـــم أنـــك جـــرم صـــغـــير وفـــيك انـــطـــوى الـــعـــالم الأكـــبر

ولندع متخصصا - كالدكتور ألكيس كاريل - يحدثنا بلغته العلمية عن أسئلة تحتاج إلى إجابات، وتؤكد عظمة الفاطر في المفطور. يقول: (كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية؟ كيف تقرر الجينات الموجودة في نواة البويضة الملحقة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة؟ كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء أنفسها في

(١) سيد قطب في الإسلام ومشكلات الحضارة: ٤٤: ٤٥.
(٢) البقرة: ١٣٨.
(٣) الذاريات: ٢١.

الأنسجة والأعضاء؟ وتساعدها العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته؟ وماهي طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور، ولكن العلاقات بين الشعور والمخ مازالت لغزا إننا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن فسيولوجية الخلايا العصبية، إلى أي مدى تؤثر الإرادة في الجسم؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء؟ وعلى أي وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية التي يرثها كل فرد أن تتغير بواسطة طريقة الحياة والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام والمناخ والنظم النفسية والأدبية؟

إننا مازلنا بعيدين جدا من معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والعضلات ووجوه النشاط العقلي والروحي، ومازلنا نجهل العوامل التي تحدث التوازن العصبي ومقاومة التعب والكفاح ضد الأمراض[1].

ويقينا لن نقدر على الإحاطة المطلقة بالأسئلة التي قدمها كاريل، لأن ذلك من خصوصيات الخالق القائل: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الملك: ١٤.

والأمر لايقتصر على معرفة شخص واحد ثم يقال: قد عرفنا الإنسان بجميع أفراده، فإن الأمر وإن بدا أن هناك اتفاقا بين الأفراد في الخلقة، إلا أن هناك اختلافات شتى بين الناس في كثير من الأمور، لدرجة تجعل كل فرد منا عالما قائما بذاته من بعض النواحي الجسمية والعاطفية، ويمكن القول: إنه يندر - بين الملايين من الناس - أن يوجد شخصان متماثلان في تركيبهما الكيماوي، وهناك مظاهر أكدت هذا من الناحية الطبية، يقول ألكيس كاريل: (يميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوههم، وإشاراتهم، وطريقتهم في المشي، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة، ويمكن معرفة كل فرد بواسطة أجزاء معينة من هيكله.

---

(١) ألكيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول: ص ١٧ : ١٨، ترجمة شفيق أسعد، مكتبة المعارف بيروت ١٩٨١م.

ومن ثم فإن بصمات الأصابع هي التوقيع الحقيقي للإنسان. كما أن أنسجة كل فرد يمكنها تمييز أخلاطه وصفاته عن أخلاط فرد آخر وصفاته. ومما يؤكد ذلك أنه: لو طعم سطح جريح بقطع من الجلد بعضها من جلد صاحبه وبعضها من جلد آخر. فإننا سوف نلاحظ التئام جلده بعضه مع بعض، في حين يلفظ الجلد ما ليس من صاحبه فيموت وينكمش. إن القاعدة: أن أنسجة أي شخص ترفض قبول أنسجة أي شخص آخر، ولهذا فمن المحتمل أنه لم يوجد فردان من بين ملايين الملايين من البشر كان تركيبهما الكيماوي متماثل، ولهذا فإن كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة مع أحداث العالم الخارجي - مع الضوضاء والخطر والطعام، والبرد والحرارة وهجمات الميكروبات والفيروسات[1].

ومما سبق ندرك بعض الحقائق التي منها: أن الإنسان كائن متميز منذ خليقته الأولى، وأنه معقد شديد التعقيد في خلقته وعواطفه وأحواله، وأن هذا التعقيد متعدد بتعدد أفراد الجنس البشري، ولم يتيسر لباحث أو باحثين حل ما يتعلق بالإنسان كلية، وإنما بشيء من الجزئية والمنهج الوحيد الذي درست فيه نواحي الإنسان كلها، وحلت مشاكلها، وقدرت حق قدرها، ووضع لها العلاج المناسب هو المنهج الاسلامي ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[2]. ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[3].

دفاع الجسم عن نفسه جزء من فطرته

عجيبة من عجائب الجسم البشري، أن يكون لديه من الجيوش والأسلحة ما يدفع به عن نفسه العاديات قبل وقوعها وبعده، وفيه من أجهزة الاستطلاع ما يرصد به أي هجوم، فيدمره في حرب قد تطول، وقد تقصر،

---

(١) المرجع السابق من ٢٧٢ - ٢٨٥. مقتطفات يسيرة.
(٢) الإنعام: ٣٨.
(٣) النحل: ٨٩.

حسب قوة الجسم، وقوة العدو أو ضعفه، وبه فرق تتخذ كل منها موقفاً لو أفلت منه المرض لقي جنداً آخر، ومايزال الجسم في صراعه معه حتى يهزمه، وهذه الأمور في الجسم البشري ليست عفوية، وإنما تجري حسب ترتيب، وبه من التحصينات ما يمنع العدو من الاختراق، ويعوق تقدمه إلى الداخل، وبه من أجهزة الإنذار المبكر ما ينبه إلى الأمراض قبل وقوعها، أو قبل تمكنها، أو يزيد عدد الجند ويكثفهم حسب الحاجة، أو لدى الاحساس بالخطر، (ولا تقتصر الحرب ضد الميكروبات على ما اكتشفه العلماء من وسائل مقاومة الأمراض، والحيلولة بينها وبين الفتك بالإنسان. بل إن في الجسم نفسه من وسائل الدفاع الفطرية ما يعوق تقدم الميكروبات، ويؤدي أحيانا كثيرة إلى القضاء عليها بمجرد وصولها إلى الجسم، أو يحول دون انتشارها فينجي الإنسان من أضرارها.

وإذا تسلل الميكروب إلى جسم الإنسان حاول بكافة الوسائل أن يضمن لنفسه سلامة البقاء، بنفاذه إلى الأعضاء الداخلية، ليتخذها مستقراً، حيث الغذاء والمسكن المأمون، ويرفض الجسم بقاءها، ويدخل معها في صراع عنيف، يطردها أو يقضي عليها، ضمانا لسلامته واستقراره.

وخلايا الجسم ذات تخصصات، فمنها الخلايا العضلية، والخلايا العصبية، والخلايا العظمية، وتندمج مجاميع هذه الخلايا المتشابهة في تنظيمات خاصة، يطلق عليها اسم «النسيج». فأصبح لدينا النسيج العضلي، والنسيج العصبي، والنسيج العظمي... الخ، ولكل منها وظيفة يؤديها لصالح الجسم.

فيختص النسيج العضلي بالحركة، والنسيج العصبي بالتعرف على جميع المؤثرات الخارجية التي يتعرض لها الجسم، وينقلها إلى المراكز العصبية الداخلية، حيث تتم الاستجابة الملائمة، بينما يقوم النسيج العظمي بوقاية الأعضاء الداخلية، كما تتحرك عليه العضلات، ويعطي للجسم شكله المألوف.

وهناك من الأنسجة ما يقوم بوظيفة الدفاع عن الجسم أو حمايته من

الغزو الميكروبي، وللجلد المقام الأول في هذا المجال، ويعتبر خط الدفاع الأول ضد الغزو الميكروبي. وهو أول ما تلامسه الميكروبات السابحة في الهواء أو التي تنقلها الحشرات التي تقع على الجلد، أو الرذاذ المندفع من أفواه المرضى، أو غير ذلك، ولذلك كان الجلد الصحيح ذا أهمية كبيرة لوقاية الجسم.

والجلد نسيج معقد التركيب، يتركب من منطقتين: الخارجية منهما تعرف «بالبشرة»، والداخلية «بالأدمة» - وكلتاهما مركبة من طبقات متتالية دقيقة، تصطف فيها الخلايا، وفي الثانية منها الشعيرات الدموية، والنهايات العصبية، التي تجعلنا قادرين على الشعور بمختلف الإحساسات، كالبرودة أو اللمس أو الألم أو غير ذلك.

وفي الجلد نوعان من الغدد: هما الغدد الدهنية، والغدد العرقية. والأولى: تفرز مادة دهنية تجعل الجلد ناعما لينا. وتفرز الثانية العرق، وهو يعمل على خفض درجة حرارة الجسم في الأجواء الحارة، وتساعد على التخلص من الماء الزائد، وبعض الأملاح المعدنية، والمواد الأخرى، وتفتح الغدد العرقية على السطح الخارجي للجلد بواسطة قنوات دقيقة.

كما تعتبر فتحات الغدد وحويصلات الشعر منافذ للميكروبات إلى الطبقات الداخلية للجلد، ولكن الأمراض الخطيرة التي تصيب الجلد نادرة نسبياً، كما تعتبر الطبقة الخارجية بالجلد حاجزا منيعاً لاتستطيع معظم أنواع الميكروبات اختراقه في الأحوال الطبيعة، ولذا ينبغي المحافظة على الجلد سليما.

ويتكون الدم من الكرات الدموية السائلة، ولهذه السيولة أهمية كبيرة، إذ يستطيع الدم أن ينفذ إلى أدق أجزاء الجسم، حاملاً مختلف الأغذية، كما يحمل الأوكسجين اللازم لعملية الاحتراق التي تتم داخلها.

والفضل في هذه المقدرة على حمل الأوكسجين راجع إلى مادة «الهيموغلوبين» الموجودة في الدم. ومع أن كرات الدم الحمراء لا تلعب دوراً مباشرا في الدفاع عن الجسم ضد الميكروبات، إلا أنها تؤدي هذه الوظيفة

بطريقة غير مباشرة، لأن النشاط الذي تبديه خلايا الأنسجة يتوقف على كمية الأكسجين الذي تحمله إليها، ويؤدي نقص كمية الأوكسجين إلى نقص نشاط هذه الخلايا، وبالتالي إلى انخفاض مقاومة الجسم للميكروبات.

ويقع عبء الدفاع المباشر عن الجسم ضد الميكروبات على عاتق كرات الدم البيضاء، وهي نوع من الخلايا الموجودة في الدم، تحتوي كل منها على نواة، وهي أكبر حجما من كرات الدم الحمراء، وأقل عدداً. فبينما يوجد في المليمتر المكعب من الدم مايقرب من خمسة ملايين كرة حمراء، لايوجد إلا عشرة آلاف - فقط - من الكرات البيضاء في الأمور الطبيعية.

ووظيفتها في الجسم وظيفة رجال الأمن، وهي تتجول داخل الأوعية الدموية، حتى إذا وجدت ميكروبا هاجمته بمختلف الطرق، حتى تقضي عليه، وتريح الجسم منه، وعلى نشاطها وكفاءتها تعتمد مقاومة الإنسان للأمراض، وتقدر صحة الإنسان بصحة كراته البيضاء.

وعند حدوث غزو ميكروبي يتجمع جيش الكرات البيضاء من مختلف أجزاء الجسم، مسرعة إلى مكان الغزو، تدفعها قوة غامضة، يسميها الفسيولوجيون اسم «الجاذبية الكيميائية».

وهنا تبدأ في مهاجمة الميكروبات، وتحاصرها، وتموت بعض الكرات البيضاء أثناء الهجوم، متأثرة بالسموم الفتاكة، ولكن الأغلبية تصمد، وتصلها الإمدادات المستمرة من مختلف أنحاء الجسم، وهي أنواع. فمنها:

نوع يفرز بعض الكيماويات التي تقتل الميكروبات أو تضعفها.

ونوع يعمل على تثبيت السموم التي تفرزها الميكروبات، حتى تصبح عديمة الضرر.

ونوع يبتلع الميكروبات، ثم يقتلها بعد ذلك، ويعرف هذا النوع بالكرات البلعمية، وتلعب دوراً كبيراً في الدفاع عن الجسم بابتلاعها للميكروبات، وهي خلايا متجولة، تلتقط الكرات الميتة والأجسام الغريبة

كالبكتيريا، وبذا تنظف الدم مما يعلق به من مختلف المواد، كما تلعب دوراً واسعاً في القضاء على الميكروبات.

وبعضها مستقر داخل الأنسجة - في بعض الأعضاء - ومثبت، وليس طليقا، وذلك في الأماكن التي يمر بها الدم بغزارة، فتتاح لها فرصة التقاط الجسيمات الغريبة وهي في مكانها.

ومنها: ما هو موجود في الكبد والطحال ونخاع العظم والغدد الليمفاوية، وإذا نجت الميكروبات من الخلايا البلعمية المتحركة في الدم فإنها تقابلها في أماكنها الثابتة، حيث تتعاون جميعا للقضاء عليها.

ويزداد عدد كرات الدم البيضاء أثناء المرض، حتى يقدر الجسم على الصمود أمام الغزو الميكروبي، وذلك في الأمراض الحادة، كالتهاب الزائدة، أو الالتهاب الرئوي، أو ظهور خراج في أي مكان بالجسم، وحينئذ تزداد الكرات البيضاء، من ضعف العدد إلى عشرة أمثاله، تبعا لنوع الالتهاب[1].

فأما كيف تنتقل الإندارات من سطح الجلد إلى المخ، وما هو عدد الخلايا التي تقوم بالإنذار؟ فشيء مذهل حقا.

يقول الأستاذ وحيد الدين خان: وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جلدنا، فإذا قربنا إلى الجلد شيئا حارا فإن ثلاثين ألفا من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فوراً إلى المخ، وإذا قربنا إلى الجلد شيئا باردا فإن ربع مليون من الخلايا التي تلتقط الأشياء الباردة تحس به، وعندئذ يمتلىء المخ بأثرها. ويرتعد الجسم، وتتسع الشرايين الجلدية، فيسرع مزيد من الدم إليها ويزودها بالحرارة، وإذا أحست هذه الخلايا بحرارة شديدة فإن مخابرات الحرارة توصلها إلى الدماغ، وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية عرقا باردا إلى خارج الجسم.

---

(١) د. محمد رشاد الطوبي: صراع مع الميكروب من ١٦:٣٠، باختصار شديد، العدد ١١٦ من سلسلة المكتبة الثقافية، ط دار القلم، وتصدرها وزارة الثقافة والإرشاد مصر.

فأما ارتباط ناقلات الأخبار بالمخ: فيكون عبر نظام دقيق للمواصلات، يفوق أي سنترال في العالم. «إننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التليفون، ونتحير إذا تمت مكالمة من ملبورن إلى لندن في ثوان. فما بالنا بنظامنا العصبي وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيدا؟ إن ملايين الأخبار تجري على أسلاك نظامنا العصبي - الذي فطره الله - من جانب إلى آخر ليل نهار. وهذه الأخبار هي التي توجه القلب في تدفقها في حركتها، وتتحكم في حركات الأعضاء المختلفة، وتتحكم في الحركات الرئوية، ولو لم يكن هذا النظام موجودا في أجسامنا لصارت تلفيقا لأشياء مبعثرة، تسلك كل منها مسلكها الخاص.

ومركز هذا النظام للمواصلات مخ الإنسان، وفي هذا المخ يوجد ألف مليون خلية عصبية، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك منتشرة في سائر الجسم، وتسمى هذه الأسلاك «الأنسجة العصبية».

وفي هذه الأنسجة يجري نظام استقبال وإرسال للأخبار بسرعة سبعين ميلا في الساعة، وبواسطة هذه الأنسجة نتذوق، ونسمع، ونرى، ونباشر سائر أعمالنا، بل إن هناك ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة، ولكل منها سلك خاص متصل بالمخ، وبواسطتها نحس بالمذاقات المختلفة.

والنظام العصبي يشتمل على عدة فروع، منها: الفرع المتحرك ذاتياً، ويقوم بأعمال تحدث ذاتياً في الجسم: كالهضم والتنفس وحركات القلب. ويندرج تحته نظامان:

أحدهما: النظام الخالق للحركة.

وثانيهما: النظام المانع لها.

وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع، ولو ترك الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة ترتب عليها موت صاحبه، ولو سيطر النظام الثاني لتوقفت حركة القلب تماما، وهما يباشران مهامهما في دقة فائقة، وتوازن تام. وهناك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين.

فالأول يتغلب عند الضغط، واحتياج القلب عند الاسعاف، فتزيد سرعة عمليات القلب والرئة.

والثاني يتغلب عند النوم، فيسود السكون جميع حركات الجسم[1].

كيف نسمع ونرى؟

من المهم - لنا - ونحن ندرس جسم الإنسان لنتبين بعض قوانين الفطرة الحاكمة له: أن نتعرف على حاستي السمع والبصر، فهما من أهم الحواس التي تعتبر منافذ للمعرفة، وقد امتن الله علينا بهما، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[2]. وجعل من لم توصلهم هذه الحواس إلى الإيمان كأنهم قد عدموها.فقال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾[3]. وقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[4].

ومن يتعرف على هاتين الحاستين كيف ركبتا، وكيف تعملان، لاشك يوقن إيقانا لايرقى إليه شك بأنهما ما كانتا هكذا عشوائيا، وأن الناس الآن يحاولون التلمذة عليهما، ليسمعوا الأصم، ويروا الأعمى، محاكين بذلك تلك الصنعة الإلهية. وكلتاهما تعملان من خلال نظام دقيق وعجيب ومعقد، ومن خلال أعداد ضخمة من الخلايا، تصل إلى عشرات الملايين ومئاتها.

وتبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية، ويقول العلماء: إن الاهتزاز الذي يحدث الصوت في الهواء، وينقله إلى الأذن التي تنظم دخوله ليقع على طبلة الأذن، وهذه تنقله إلى التيه - عظم في الأذن ذو ممرات ملتوية داخل الأذن - ويقرر العالم «كورتي»: : أن التيه يشتمل على نوع من الأقنية بين لولبية

(١) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى: ص ٣٨٥، ٨٦، ط أولى ١٩٧٠ دار الشروق.
(٢) النحل: ٧٨.
(٣) البقرة: رقم ١٨.
(٤) الأعراف: ١٧٩.

ونصف مستديرة، وأن في القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة، متصلة بعصب السمع في الرأس. فما طول القوس منها وحجمه؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التي تبلغ عدة آلاف كل منها ركب تركيبا خاصاً؟، وما الحيز الذي وضعت فيه؟ ناهيك بالعظام الأخرى المتماوجة، هذا كله في التيه الذي لايكاد يرى، وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية، وتنتهي الأعصاب بأهذاب دقيقة دقة هائلة، وعظيمة عظمة تحيّر الألباب»[1].

فأما كيف تميز الأذن بين الصوت العالي والخفيض؟ والجميل والقبيح وأصوات الناس بعضهم من بعض؟ بحيث يمكن أن يعرف أن هذا صوت زيد، وهذا صوت عمرو، وهذا صوت إنسان، وذاك صوت حيوان، أو هذا صوت الريح، وغيره صوت قنبلة، أو انفجار - فعجيبة من عجائب الله سبحانه وتعالى.

العين:

تتكون العين من: الصلبة، والقرنية، والمشيمة، والشبكية. وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية، ويكفي أن تعلم أن معجزة الإبصار هي: أن صورة الشيء المنظور تطبع معكوسة على الشبكية، وينقل العصب البصري هذه الصورة المعكوسة الشكل إلى المخ، فيعيدها المخ إلى العين، وقد عكسها مرة أخرى، أي عدلها، فيراها الناظر معدلة غير معكوسة، فهل حدث أن رأى انسان ما مرة واحدة صورة معكوسة في تاريخ البشرية الطويل؟ إذا كان ذلك لم يحدث ولن يحدث، فهل بعد ذلك إلى المصادفة من سبيل؟ وهل بعد ذلك آية أبلغ في الدلالة على وجود الله.

وبعض أجزاء العين يتكون من طبقات، بعضها يتكون من ملايين الأجزاء، يقول كريس موريون: إن عدسات عينيك تلقى صورة على الشبكية فتنتظم العضلات العدسات بطريقة آلية إلى بؤرة محكمة، وتتكون الشبكية من

---

(١) منهج القرآن في التربية، محمد شديد: ص ٨٠: ٨١.

تسع طبقات منفصلة، هي في مجموعها ليست أسمك من ورقة رفيعة، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات، ويقال: إن عدد الأولى ثلاثون مليون عوداً، وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط، وقد نظمت هذه كلها في تناسب محكم، بعضها بالنسبة إلى بعض، وبالنسبة إلى العدسات، ولكن العجيب أنها تدير ظهورها للعدسات، وتنظر نحو الداخل، لانحو الخارج، وإذا استطعت أن تنظر في خلال العدسات فإنك ترى عدوك مقلوب الوضع، والجانب الأيمن منه هو الأيسر، وهذا أمر يربك إذا حاولت أن تدافع عن نفسك، ولذا فإن الله الفاطر قد عرف ما سيحدث، ولهذا صمم العين ذلك التصميم، قبل أن تقدر على الإبصار، ورتب إعادة الصورة كاملة عن طريق ملايين من خويطات الأعصاب المؤدية إلى المخ، ثم رفعت مدى إدراكنا الحسي من الحرارة إلى الضوء، وبذا جعلت العين حساسة بالنسبة للضوء، وتختلف عدسة العين في الكثافة، ولذلا تجمع كل الأشعة في بؤرة واحدة.

ولايحدث مثل هذا في أية مادة من جنس واحد كالزجاج، وكل هذه التنظيمات العجيبة للعدسات والعيدان والمخروطات والأعصاب وغيرها لابد أنها حدثت في وقت واحد، لأنه قبل أن تكمل كل واحدة منها كان الإبصار مستحيلا، فكيف استطاع أن يعرف احتياجات العوامل الأخرى، ويوائم بين نفسه وبينها؟[1].

من آيات الفطرة في بعض الحيوانات

أرى استكمالاً لعناصر البحث في الفطرة - بمعنى الخلقة - سواء أكانت خاصة بالإنسان، أم عامة - تشمله والحيوان معه - كما جرى على ذلك كثير من المفسرين. وكما هو حديث البخاري «كل مولود يولد على الفطرة..» أرى

(١) العلم يدعو للإيمان: ١١٥ - ١١٦.

أن أذكر نماذج قليلة من فطرة الحيوان. فالقرآن يوجهنا إلى استجلاء فطرها فيقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[1].

ومن الغريب أن هناك دراسات جادة ودؤوبا لعالم الحيوان، وعالم البحار لدى الغربيين، ولكنها لدينا تكاد تكون - لقلتها - معدومة، مع أن الله يوجه خلقه للنظر في أحوال الطير، فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[2].

وقد استأنس العلماء بعض الحيوانات والأسماك، ودربوها على أشياء كثيرة، وجعلوها تحاكي الإنسان، كما استخدم قديما - ولعله لايزال يستعمل لدى بعض الهواة - الحمام الزاجل في حمل الرسائل، ونحن كمسلمين تجب علينا دراسة هذه الأمور، لأنها جزء من مثبتات الإيمان، وكاشفات حكمة الله في خلقه، فللحيوانات تصرفات تدل على أن هناك حكمة توجهها، وتحفظ لها نظام حياتها، فلننظر ما يقول العلم: (والحمام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليه في رحلة طويلة داخل قفص يحوم برهة ثم يقصد قدما إلى موطنه، دون أن يضل. والنحلة تجد خليتها مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار، كل ذلك دليل على اهتدائها بفطرتها إلى مافعلته الريح بخليتها، وحاسة العودة إلى الوطن ضعيفة في الإنسان، وهو يكملها بأدوات الملاحة.

وللحشرات عيون ميكروسكوبية لاندري مبلغها من الإحكام، وللصقور بصر تلسكوبي، وهنا يتفوق الإنسان بأدواته الميكانيكية، فهو بتلسكوبه يمكنه أن يرى سديما يحتاج إلى مضاعفة قوة إبصاره مليوني مرة ليراه، وهو بميكروسكوبه الكهربي يستطيع أن يرى بكتيريا كانت غير مرئية.

والحصان العجوز يلزم الطريق مهما اشتد الظلام، ويستطيع الرؤية ولو

---

(١) الأنعام: ٣٨.
(٢) الملك: ٣.

بغير وضوح، ويلحظ اختلاف درجة الحرارة في الطريق وجانبيه، بتأثر عينيه بالأشعة تحت الحمراء التي للطريق[1].

نحلة العسل:

في القرآن آيتان تتحدثان عن نحل العسل، وهما في السورة المسماة باسمه في القرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[2].

وأتوقف عند قوله تعالى: «فاسلكي سبل ربك ذللاً»، أي أن الله ذلل لها الطرق، وعبدها لها: من جبال، وصحارى، ووديان. فكيف حدث هذا؟ يمكن الإجابة بأن الله نظم لها طرق حياتها، وأساليب التعرف على أماكن غذائها، ثم دعوة بقية الفريق لمكان الغذاء، ومعرفة طريق العودة إلى الخلية، ثم التقسيم العجيب للعمل فيما بينها، ومع أن حواسها قد لاترى بالعين المجردة، أو ترى غير متميزة، إلا أنها وهبت أسلوب حياتها وألهمته، فلا تضل عنه ولاتحيد.

يقول كريس موريسون: «ونحلة العسل لا تجذبها الأزهار الزاهية، ولكنها تراها بالضوء فوق البنفسجي الذي يجعلها أكثر جمالا في نظرها».

إن العاملات من النحل تصنع حجرات مختلفات الأحجام. فالحجرات الصغيرة للعمال، والأكبر للذكور، وتعد غرفة خاصة للملكات الحوامل، والنحلة الملكة تضع بيضا غير مخصب في الخلايا الخاصة للذكور، وبيضاً مخصباً في الحجرات الصحية المعدة للعاملات الإناث والملكات المنتظرات.

---

(١) المرجع السابق: ص ١١٥.

(٢) النحل: ٦٧ - ٦٨.

والإناث العاملات تهيأن أيضاً لإعداد الغذاء للنحل بمضغ العسل واللقح، ومقدمات هضمه، وعند مرحلة معينة من تطور الذكور والإناث ينقطعن عن هذا العمل، ولايغذيه سوى العسل واللقح، أما العاملات في حجرة الملكة فإن التغذية بالمضغ ومقدمات هضمه تستمر عندهن، وهؤلاء يتطورن إلى ملكات في المستقبل، وهن وحدهن اللائي ينجبن بيضاً مخصبا، وتكرار الإنتاج يحتاج إلى حجرات خاصة، وبيض خاص، لما لتغيير الغذاء من أثر عجيب، وهذا يتطلب الانتظار والتمييز، وتطبيق اكتشاف أثر الغذاء، وهذه التغيرات تنطبق على حياة الجماعة، وهي ضرورية لوجودها، فمن إذا الذي علم النحلة سر النماء، وألهمها سر البقاء؟[1].

فإذا تساءلنا كيف يتعرف النحل على طعامه؟ وكيف يتداعى إليه؟ وهل له لغة أو شفرة أو موجات خاصة يتعارف عن طريقها؟ ويجيئنا في الجواب: «إذا ما أعطي النحل غذاء في وقت معلوم فإنه يطير إليه في كل يوم في نفس الوقت المعلوم، فإذا منع عنه الطعام فإنه يفد إلى مكانه في ذات الوقت، ثم ينصرف عنه، ولايعود بعد ذلك، أي أن للنحل ذاكرة وتعودا، ودرجة كبيرة من التكيف، وهي قدرات تعمل على التميز السيكلوجي للسلوك الاجتماعي، وقد عرف من قديم أن النحلة إذا ماعثرت على طعام من رحيق أو غيره فإنها سرعان ما تعود لتدعو النحل ليجمع ذلك الطعام، فما هي طريقة التفاهم إذن؟

لقد درس العالم الألماني فون فريش طريقة التفاهم في النحل وفهمها، فالنحلة عندما تؤوب إلى خليتها بعد أن تكشف عن حقل غني بالطعام تلقي حملها، ثم تزحف حول الخلية محركة بطنها بمنة ويسرة بطريقة أطلق عليها فون فريش: رقص الهز، وعندما يكون الطعام قريبا يدور النحل للدلالة عليه دورة كاملة، سماها فون فريش: الرقص الدائري، فلما أبعد الطعام عاد النحل إلى رقص الهز، وعادة ما تكون الحركة على شكل رقم ٨ بالإفرنجية، وقد وجد فون فريش - بعد عد الدورات التي دارتها النحلة - أن هناك علاقة

---

(١) المرجع السابق ١١٦ - ١١٨.

عكسية بين عدد الدورات، والمسافة التي يبعدها الإناء عن الخلية، فهي تدور ثماني دورات إذا أبعد الطعام مائتي متر، وستاً إذا أبعد خمسمائة، وعلى بعد ١٥٠٠ متر في خط منحني، حتى يستقيم تماما على بعد خمسة آلاف متر.

كما لاحظ أن رأس النحلة حين الرقص يكون متجها وجهة خاصة، فإذا كانت إلى أعلى فمعناه أن الطعام في اتجاه الشمس، وإلى أسفل يكون في اتجاه عكسي لاتجاه الشمس.

وقد لاحظ كذلك أن رأس النحلة لايتجه إلى الأمام وإلى أسفل مستقيماً، وإنما ينحرف أحيانا، وتكون زاوية انحراف الرأس عن الجسم متعلقة بموضع الغذاء والشمس بالنسبة للخلية، فعلى سبيل المثال إذا رقصت النحلة بزاوية قدرها ٦٠ درجة إلى يسار الخط الرأسي فمعنى ذلك أن مورد الغذاء يقع إلى يسار الشمس بدرجة ستين، وقد تبين لفون فريش أن النحل يحدد موضع الغذاء بدقة في حدود ١٥ درجة.

وتسمى هذه الظاهرة «بوصلة الشمس»، فإذا غابت أخطأ كثيرا.

وعلى كل حال فهذا دليل على وجود طريقة ما للتفاهم بغير لغة منطوقة، وإنما بجهاز من الإشارات اللاسلكية[1].

فإذا انتقلنا إلى البحر وجدنا سلوكين متغايرين لبعض الأسماك، وهما سمك السلمون، وثعبان الماء، حيث يمضي الأول سنوات في البحر، ثم يعود إلى نهره الخاص، ويمضي الثاني رحلة طويلة في المحيطات ليبيض في مكان معين، ثم يموت بعد وضع بيضه، فإذا ما خرجت صغاره تعود أدراجها إلى الشاطىء الذي جاءت منه أمهاتها، ثم إلى كل نهر أو بركة أو بحيرة.

يقول كريس موريسون: وسمك السلمون الصغير يمضي سنوات في

---

(١) د. أحمد حماد الحسيني: من سلوك الحيوان: ١٢٣: ١٢٦، بتصرف العدد ٨٤ من سلسلة كتب ثقافية، تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد بمصر.

البحر، ثم يعود إلى نهره الخاص، والأكثر من ذلك أنه يصعد جانب النهر الذي يصب عنده النهير الذي ولد فيه.

فما الذي يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد؟ إن سمكة السلمون التي سبحت في النهر صعدا - ضد التيار - إذا انتقلت إلى نهر آخر، أدركت - توا - أنه ليس جدولها، فهي لهذا تشق طريقها خلال النهر، ثم تحيد ضد التيار، قاصدة إلى مصيرها. وهناك لغز أصعب من ذلك يتطلب الحل، وهو الخاص بثعابين الماء التي تسلك عكس هذا المسلك، فإن تلك المخلوقات العجيبة متى اكتمل نموها هاجرت من مختلف البرك والأنهار، وإذا كانت في أوروبا قطعت آلاف الأميال في المحيط، قاصدة كلها إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا، وهناك تبيض وتموت. أما صغارها تلك التي لاتملك وسيلة لتعرف بها أي شيء سوى أنها في مياه قفرة، فإنها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى الشاطىء الذي جاءت منه أمهاتها. ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة، ولذا يظل كل منها آهلا بثعابين البحار.

لقد قاومت التيارات القوية، وثبتت للأمداد والعواصف، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطىء، وهي الآن يتاح لها النمو، حتى إذا اكتمل نموها دفعها قانون خفي إلى الرجوع حيث كانت، بعد أن تتم الرحلة كلها.

فمن أين ينشأ الحافز الذي يوجهها لذلك؟ لم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوروبية، أو صيد ثعبان الماء الأوروبي في المياه الأمريكية، والفاطر جل وعلا يبطيء في إنماء ثعبان الماء الأوروبي مدة سنة أو أكثر، ليعوض من زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها، ترى هل الذرات والهباءات إذا توحدت معا في ثعبان ماء يكون لها حاسة التوجيه وقوة الإرادة اللازمة للتنفيذ[1]. أم أنه الفاطر - جل وعلا - الذي ألهم كل مخلوق قانون

(١) العلم يدعو للإيمان: ١٢٠: ١٢١، بتصرف يسير.

حياته؟ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1] ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾[2].

من عقوبات التمرد على الفطرة

الفطرة هي فطرة الله، ولها كما - أشرت - من لدنه عز وجل قوانينها الحاكمة، وإذا ماتمرد الإنسان عليها فإن عقوبات الفاطر - عز وجل - سرعان ما تحل به، سواء أكان هذا التمرد على شرع الله سبحانه وتعالى: كتحليل الحرام، أو تحريم الحلال، وهذا أمر يشمل حياة الإنسان كلها: عقلاً وجسداً وعاطفة، فردا وأمة، زوجا أو ابنا، عالما أو جاهلا، أو كان رفضا أوشكا في مصدر الدين، أم كان تربية على غير منهجه: عمداً وقصداً، أو تحريفا متعمداً يؤله المخلوق ويشركه مع الخالق، وما من أمر من الله إلا وفيه مصلحة، وما من نهي إلا كذلك، وقد أشارت آيات القرآن إلى أن السعادة تكمن في التمشي مع الفطرة، وأن الشقاء يكمن في العمل على غير مقتضاها.

فمثلا العدل من موجبات الفطرة والظلم ضدها، فهو جالب للخراب والعذاب ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[3]، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[4].

وأكل الربا ضد الفطرة، والبيع موافق لها،ولذا فإن ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[5].

والطلاق موافق للفطرة، ومنعه مخالفة لها، وتعدد الزوجات موافق لها، ومنعه مخالف. وكل مخالفة يرتكبها الإنسان تثلم ثلمة في قانون سعادته على الأرض، كما أن كل خطوة يقربها من ربه يخطو بها توفيق الله نحوه خطوات.

---

(١) النمل: ٨٨.
(٢) السجدة: ٧.
(٣) الشورى: ٣٠.
(٤) النساء: ٧٩.
(٥) البقرة: ٢٧٥.

وقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي - ﷺ - : يقول الله عالى: **﴿أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليَّ بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إليَّ ذراعا، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة﴾**[1].

يقول الإمام بن القيم: المرض نوعان: مرض شبهة وشك، ومرض شهوة وغي، وكلاهما في القرآن الكريم.

فالأول: قال فيه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[2].

وأما مرض الشهوات فقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[3]. فهذا مرض شهوة الزنا.

وأما مرض الأبدان فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[4].

فأما طب القلوب فمسلم إلى الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - ولا سبيل إلى حصوله له إلا من جهتهم، وعلى أيديهم، فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها، وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ومحابه، متجنبة لمناهية ومساخطه، ولا صحة لها ولا حياة البته إلا بذلك، ولاسبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل، ومايظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم ممن يظن ذلك وهم كبير[5].

---

(١) متفق عليه، حديث: رقم ١٧١٣ من اللؤلؤ والمرجان.

(٢) البقرة: ١.

(٣) الأحزاب: ٣٢.

(٤) النور: ٦١.

(٥) زاد المعاد ٤/٧ باختصار شديد، ط٧ - ١٩٨٥، مؤسسة الرسالة.

وآيات القرآن وأحاديث الرسول - ﷺ - كثيرة في أن نزول المصائب بالناس لهم فيه دخل كبير.

ومن السنة عن ثوبان رضي الله عنه: أن النبي - ﷺ - قال: إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه[1].

وقد ذكر لنا القرآن عقوبة أقوام لمخالفتهم الفطرة في اتخاذ الذكران بدلا من النساء، فأبادهم الله وخسف بهم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾[2].

وقد تحدث العلماء عن أمم كانت في بداية أمرها مستمسكة بحبل العفة والغيرة ثم تغيرت أحوالها فأبادتها المعاصي التي ولغت فيها، ومنها أمم في القديم، وأمم في الحديث.

أمة اليونان:

يذكر الشيخ أبو الأعلى المودودي في الحجاب أنهم: أرقى الأمم القديمة حضارة، وكانوا عندما ذاع فيهم العلم قد ارتقت لديم مكانة المرأة الاجتماعية، فهي في البيت ربته، وعفافها أعظم ما ينظر إليه، وكان الحجاب شائعا في بيوتاتهم العالية، فبنوا البيوت قسمين: قسم للنساء، وقسم للرجال، ولم يسمح بالاختلاط في المجالس والأندية، وكانت المرأة الزوجة هي النجيبة الشريفة، ثم بدأت الانحرافات الخلقية، وتبوأت العاهرات مكانة عالية، وشاع الاختلاط.

وتبدلت نظريتهم إلى الزنا والزناة.. وانصرفوا عن الزواج. فهبطوا، ولم تقم لهم قائمة - بعدها - إلى الأبد، وشهد التاريخ أنهم لم يصيروا إلى الرقي - أبدا - بعد ذلك[3].

---

(١) رواه النسائي، وابن حبان، والحاكم، بسند صحيح، الترغيب والترهيب: جـ ٣ ص٢٤٦، ط أوقاف مصر.

(٢) هود: ٨٢.

(٣) الحجاب ١٢ - ١٦، باختصار شديد، ط مؤسسة الرسالة ١٩٧٨.

وجاء على إثرهم الرومان، وهم الأمة التي كانت تقتسم حكم الدنيا - هي والفرس - حين مبعث النبي محمد - ﷺ - وكانوا في أول أمرهم ينظرون إلى العفاف بعين الاجلال، وخاصة في النساء، وكان يعد مقياسا للشرف وكرم الأصل، وكان مستوى الأخلاق عندهم عالياً، ويحرم على الرجل والمرأة أن يتعايشا بدون عقد، والمرأة لايعلي شأنها إلا أمومتها، وكانت البغايا يُحتقرن هن ومن يعاشرونهن من الرجال، ثم تغير الحال في نظرتهم إلى الزواج، فأصبحوا لايهتمون به ولابتبعاته. ثم أبيح الطلاق لأتفه الأسباب، وتزوجت المرأة من مرة إلى ثلاث وعشرين مرة، وكذا الرجال، ثم صار الزنا عندهم شيئا عاديا، واندفعوا في تيار من العري، وجموح الشهوات، والخلاعة، والفجور.

وكانت النتيجة: أن دالت دولة الرومان، ومزق جمعها شر ممزق، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك[1].

جنس ثالث في طريقه إلى الظهور

الأساس في الإسلام ألا تبتذل المرأة في إعالة نفسها، وإنما يجب على أقاربها إعالتها: أمًا، أو أختا، أو بنتا، أو زوجة. والظروف التي أخرجت المرأة للعمل في أوروبا، المفروض ألا توجد في بلاد الإسلام. ذلك أن الحروب الأهلية هناك قتلت الكثير من الرجال، كما هاجر كثيرون إلى المدن، ابتغاء الأعمال الجديدة، وتركوا نساءهم بلا معيل، فاضطر هؤلاء إلى العمل، وهناك الآن التمزق الأسري، حيث لا يعول الرجل أبناءه وبناته بعد سن الخامسة عشرة.

ومما لاشك فيه أن العمل عبء كبير على المرأة، ينقص من قدراتها على القيام بواجبات أسرتها، ولذا لاتستطيع الأم العاملة أن تنجب أولاداً كثيرين، وقد أدى هذا إلى نوع من الاضطراب لدى كثيرات من النساء، فهن

---

(١) ١٧ - ٢٠، باختصار من المصدر نفسه.

بين ويل الرغبة في الإنجاب، وويل الخوف من أصحاب الأعمال الذين لايرغبون في حملهن، ويهددونهن بالفصل من العمل لو قد حصل حمل أو إنجاب، ولذا يتنبأ علماء الحياة والاجتماع ووظائف الأعضاء بظهور جنس وسط بين الرجال والنساء، يطلقون عليه الجنس الثالث، وتلك بعض عقوبات الفطرة، لتمرد المرأة على أنوثتها، وخروجها دون حاجة ملحة لميدان العمل.

وقد «ذكرت الدكتورة بنت الشاطىء أنها ذهبت يوم أحد لزيارة صديقة لها طبيبة في مدينة فينا عاصمة النمسا، فرأتها تقشر البطاطس، فعجبت لأنه يوم إجازتها، فقالت لها الطبيبة: لاتعجبي، فلعلي لم أتجاوز به نطاق مهنتي، فهو نوع من العلاج لحالة قلق، أعانيها وتعانيها معي سيدات أخريات من المثقلات بالأعمال العامة.

ولما سألتها عن سر ذلك القلق مع استقرار أوضاع المرأة الغربية؟ أجابت بأن ذلك القلق هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والحياة ووظائف الأعضاء في المرأة العاملة، وذلك لما لحظوا من تغير بطيء في كيانها، لم ينتبه له أول الأمر لولا ما سجلته إحصائيات تناقص المواليد بين العاملات.

وكان المظنون أن نقصان المواليد اختياري، رغبة من المرأة العاملة في التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع، تحت ضغط الحاجة للاستقرار في العمل، ولكن ظهر من استقراء الإحصائيات أن نقص المواليد للزوجات العاملات لم يكن أكثره عن اختيار، بل عن عقم استعصى علاجه، وبالفحص اتضح عدم وجود عيوب عضوية ظاهرة، مما دعا العلماء إلى افتراض تغير على كيان الأنثى العاملة، نتيجة لانصرافها المادي والذهني والعصبي - عن قصد أو غير قصد - عن مشاغل الأمومة، وتشبهها بالرجل، ومشاركته في ميدان عمله.

واستند علماء الأحياء في هذا الفرض على قانون طبيعي معروف، هو أن الوظيفة تخلق العضو.

ومعناه: أن الأمومة هي التي أعطت حواء خصائص مميزة للأنونة،

وهي لابد أن تضمر تدريجيا بانصرافها عن الأمومة، واندماجها في عالم الرجل.

ثم تابع العلماء هذا الفرض فأكدت التجارب قرب ظهور جنس ثالث تضمر فيه خصائص الأنوثة التي رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء.

وقد رد على هذا الافتراض باعتراضات منها:

أن كثرة العاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد.

وأن المجتمع الحديث يعترف بالأم العاملة، ويحمي حقها في العمل، ويتيح لها فرصة الجمع بين العمل والأمومة.

وأن عهد المرأة بالخروج للعمل لايتعدى بضعة أجيال على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها ما لايحصى من دهور وأحقاب.

وكان الرد على هذه الاعتراضات: أن اشتهاء الزوجة العاملة للعمل يخالطه دائما الخوف من أعبائه، والاشفاق على مكانها في العمل، لأن الاعتراف بالأم العاملة لايتم إلا في حدود ضيقة، وبقوة القانون، وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات.

فإما قرب عهدها بالخروج فرد عليه بأنه قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل، وإصرار عنيد على التشبه به، مما عجل ببوادر التغيير لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة، وقوة رسوخها في ضميرها، ومايزال المهتمون بهذا الموضوع يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى، ويستقرئون باهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن، وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة[1].

وقد يقال: إن هذا الكلام فيه شيء من المبالغة، أو كلام غير متخصص، ونحن نقدم بعض المعلومات لرجل لايتهم بالمبالغة، أو ببغض

---

(١) المرحوم الأستاذ سيد قطب في: الإسلام ومشكلات الحضارة: ١٥٢ - ١٥٤، ط الحلبي ١٩٦٢.

المرأة، لكنه يقدم الحقيقة التي تنبيء عن أن قيام المرأة بوظائفها يحفظ عليها صحتها الجسمية والنفسية، ويجعلها تعيش حالة من التوازن، وهذا مايشهد به الدكتور ألكسس كاريل. يقول: نقصان عدد المواليد في المدن الصناعية: إما مباشرة، أو غير مباشرة.(٣٧). نظراً لاستجابة النساء للتعديلات التي أدخلتها الحضارة الصناعية على عادات الأسلاف، وعن محاولة مساواة النساء بالرجال. (٣٥): ٣٦.

وإن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لاتأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، أو من الحمل والولادة، أو من طريقة التعليم، فهي ذات طبيعية أكثر أهمية من ذلك.

إنها تنشأ من تكون الأنسجة ذاتها، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض، ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحدا، وأن يمنحا سلطات واحدة، ومسئوليات متشابهة.

والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل، فكل خليه س خلايا جسمها تحمل طابع جنسها، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي.

فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للِّين، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعا لطبيعتهن، دون تقليد الذكور، فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال.

إن الأب والأم يساهمان بقدر متساو في تكوين نواة البويضة التي تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديدة، ولكن الأم تعطي علاوة علي نصف المادة النووية كل البروتوبلازم المحيط بالنواة، وهكذا تلعب دورا أهم من دور الأب في تكوين الجنين: ١٠٨: ١١٠ [١].

(١) مقتطفات من: الإنسان ذلك المجهول، لأكس كاريل.

ازدياد حدة الأمراض

ارتفعت أصوات كثيرة تحذر من مخالفة قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومن تطاول الجانب المادي وتعملقه، وانعدام الجانب الروحي وتقزمه، ونتج عن ذلك القلق الشديد من الخوف على المال أن يزول، أو الشيخوخة أن تقدم، أو شهوة ما من الشهوات أن تضعف أو تزول، وأصبحت أمراض الانفعالات هي أمراض الإنسان المتمدين: من ضغط، وسكر وسكته.. إلخ.

كما ينتج عن انتشار آداب المجون، واللذة والجنس، وانتشار المخدرات، وهوسة الردة إلى الإنسان الأول، بعريه وعدم تقيده بقيود التقاليد والقوانين، انهيار الحصانة في المجتمعات، وانتشار الشذوذ، وبالتالي حدثت أمراض ما سمعنا عنها، وهي تهدد بوباء مستطير، ومنها الإيدز والهربس والغريب أن بعض أسبابه تعزى إلى القرد الأخضر، وكأن الإنسان يريد أن يحمل القرد جرائر انحرافاته. يقول أليكس كاريل: «إن شخصا من اثنين وعشرين من سكان نيويورك يجب إدخاله مستشفى الأمراض العقلية من آن لآخر.

وفي الولايات المتحدة عدد مرضى العقول ثمانية أمثال المصدورين - مرضى الصدر - وفي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية حوالي ست وثمانين ومائة ألف حالة جديدة.

وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب، وأن أمراض المجتمع العصري أكثر خطورة من السل والسرطان وغيرها من الأمراض الخطيرة.

ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذي تعاني منه المدنية العصرية [1].

---

(١) ١٧٨ من المصدر السابق.

وهناك إحصائية عن حدة ازدياد ارتكاب الجرائم في الولايات المتحدة تقول: إنه في كل ثانيتين من الوقت جريمة خطيرة، وكل ٨٢ ثانية حالة اعتداء بالضرب، وكل ٦ دقائق جريمة اغتصاب.

إنه في كل ٤ ثوان جريمة سرقة بالخطف، وكل ٨٥ ثانية حالة سرقة تحت تهديد السلاح.

إنه في كل ٨ ثوان اقتحام لأحد المنازل، وثلاثون مرضا جنسيا من بينها الهربس.

وإنهم عادوا لوضع الحديد حول الأدوار السفلى من البيوت، خوفا من اللصوص، وإنهم يضعون المسدسات تحت الوسائد، لحماية أنفسهم، ويضعون لافتات في الفنادق تحذر النزلاء من عدم إعطاء اللصوص ما يريدونه، لأن حياتهم أثمن من جميع الأموال.

كما ذكر أن المصابين بالحرب العالمية الأولى واحد وعشرون مليونا، قتل منهم سبعة ملايين، وكانت نفقاتهم ٧٣ مليار جنيه، وهناك من يرى عدد المصابين أكبر.

والحرب العالمية الثانية أصيب فيها ما لا يقل عن ٥٠ مليونا [١]، تكلف قتل الواحد منهم ١٠,٠٠٠ جنيه، ومجموع نفقاتها آلاف الملايين من الجنيهات، ونفقات الساعة الواحدة مليونان [٢]، وتلك عقوبة الفطرة حين لا يرى الإنسان إلا نفسه، ويرغب في استعباد غيره ويتأله.

فأين هذا من حروب الإسلام التي قيل: إن قتلى الغزوات جميعا ١٠١٨، منهم ٢٥٩ مسلما، و٧٥٩ كافرا [٣].

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم ٢٠٥ بانحطاط المسلمين، نقلا عن المستر ناوتسند في مقال نشره في صحيفة هندو الإنجليزية يوم ٣١ يناير ١٩٤٣.

(٢) نفس الصحيفة.

(٣) أبو الحسن: نقلا عن السيرة النبوية للقاضي سليمان المنصور فوزي ج٢، ود.علي عبد الواحد وافي: حقوق الإنسان في الإسلام ص١٠١.

ثم أخيرا : الإجهاض نتيجة الحمل من سفاح، أو كراهية الإنجاب، وهناك إحصائية عن الإجهاض في أوروبا تقول:

١٥٠,٠٠٠ - ألمانيا الشرقية، ١٠٠٠,٠٠٠ - ألمانيا الغربية

٩٠٠,٠٠٠ - إيطاليا، ٣٠٠,٠٠٠ - النمسا

٣٠٠,٠٠٠ - بلجيكا، ٣٠٠,٠٠٠ - فرنسا

٢٥٠,٠٠٠ - بريطانيا، ٣٢,٠٠٠ - الدانمرك

٢٠,٠٠٠ - السويد

إن ذلك كان ثمرة التمرد على قوانين الله، الذي أرسل في القديم على بني إسرائيل الجراد والقمل والضفادع والدم لما تمردوا على رسله، وتلك الأمراض البدنية والعقلية والنفسية هي ثمار خبيثة لخبث القلب والنفس، لأن الخبيث مآله إلى خبيث، فأما إيمان المفطور بفاطره فيربط على قلبه، غنيا كان أو فقيرا، مريضا أو صحيحا، عزيزا أو ذليلا. وصدق الله العظيم ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [1].

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾. الأنعام: ١٢٥.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [2].

وقد تنبه بعض قادة أوروبا إلى أن سر الكوارث من هزائم وغيرها يعود إلى الفجور.

«وقد أعلن المارشال بيتان عقب هزيمة بلاده فرنسا أمام المانيا في

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) طه: ١٢٤ - ١٢٧.

الحرب العالمية الثانية: أن ذلك يعود إلى الفجور، وأصدر وقتها تشريعا يحدد للمرأة قياس ثوبها وأكمامها بشكل معين، ليستأصل دابر الفتنة.[1]

من قوانين الفطرة في عالم النبات :

تسترعي انتباه المتأمل في آيات القرآن الكريم الخاصة بالنبات على وجه الأرض الإشارات إلى اختلاف الألوان والطعوم والاشتباه بين النباتات وعدم الاشتباه، وهذه الاشارات تدل على أن حياة النبات محكومة بقوانين كقوانين الإنسان والحيوان والكون، ولنأخذ بعض الآيات، ومنها:

﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ (الأنعام ٥٩ : ٦٩).

والآية - والله أعلم - تشير إلى ما تراه العين المجردة من جمود البذرة، بينما هي عالم يمور بأسباب الحياة، فإذا ما نزل عليها الماء خرجت منها الحياة التي تبهج الناظرين . والقرآن يعبر عن الفعَّال لقوانين الإحياء والإماتة في فلق الحب والنوى بقوله« ذلكم الله» وهذا التعبير يفيد أنه لا يقدر على ذلك إلا الله، واقتران فلق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا بفلق الحب والنوى يشير بوضوح إلى أن هناك عمليات كيماوية تجري في باطن الأرض وعلى سطحها، ليكتسب النبات أسباب حياته. فمخرج العود من البذرة، ليكتسب من الشمس بألوانها وأشعتها بعض أسباب الحياة، ومن الهواء بمكوناته - من أوكسجين وإيدروجين وثاني أكسيد الكربون - بعض الأسباب الأخرى، ثم من جذوره بما تمتص من الأرض من أملاح وماء جعل فيه آيات لا يقدر على صنعها سواه، سبحانه وتعالى.

وبعد هذه الآية بآيتين يعود القرآن بشكل أكثر توضيحا لقضية خلق النبات، فيقول تعالى: «وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ

(١) محمد المجذوب: تأملات في المرأة والمجتمع، ص ١٦ ط دار الشروق.

فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ » الأنعام: ٩٩.

والآية تشير إلى أن : الماء هو أساس إنبات النباتات جميعا، حتى تتخذ وضعها كما أراده لها - سبحانه وتعالى - من اختلاف في الأشكال والألوان، والغلظ والدقة، والضعف والقوة، كما تشير إلى هندسة العذوق في النخيل، والقطوف في الأعناب، والسنابل في القمح، وإلى كثرة المنافع في الزيتون، وهي إذا تشابهت في بعض الخصائص فهي متخالفة في غيرها، من شكل وطعم وطبع، ولذا قال البراء وابن عباس والضحاك وغيرهم: أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطبا صار عنبا ورطبا، وغير ذلك، مما خلق - سبحانه وتعالى - من الألوان والأشكال والطعوم والروائح[1]. مع وحدة ما يسقى به، وما يتنفسه، وما يتغذى به، «وإلى هذه أشارت آية الرعد، وهي قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ «الرعد: ٤».

وقد أشارت بإجمال إلى ما يمكن لو أريد تصنيفه أن يشغل مجلدات عن النباتات وألوانها وطعومها وفصائلها والأجواء التي تنبت فيها، وبعض خصائصها الدوائية أو الغذائية، وبعض غرائبها، الأمر الذي يشير إلى أن شيئا ما لا يسير عبثا، ولا ينطلق سدى، إنما هناك عقل وراء ذلك الخلق المترامي الاتساع، والمشكل عالماً يحتاج في فهمه إلى آلاف وآلاف من الباحثين، حول الوراثة في عالم النبات، وحمل البذور لأجنة تحمل خصائص الأشجار المأخوذة منها من طعم ولون وساق وأوراق، فإذا كان العرق دساسا في عالم الإنسان - فهو دساس في عالم النبات أيضا. ولو أننا دخلنا حديقة غناء لا تشتمل إلا على الورود والزهور والأبصال ذات الرائحة الطيبة لوجدنا أنفسنا

(١) مختصر تفسير بن كثير : ج١ ص ٦٠٢ : ٦٠٣.

أمام عالم معجب، سواء في الفصيلة الواحدة أو في الفصائل المختلفة، ولنأخذ ما نسميه بالورد البلدي كمثال، حيث تختلف ألوان الورود فيه وأحجامها من كبير لصغير، ومن أبيض لأحمر لأصفر . . إلخ، وفي هذا يقول الإمام بن كثير: أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وهذا في غاية المرارة، وهذا ملح، وهذا عذب، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض. وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة، وهي الماء. مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط. ففي ذلك آيات لمن كان واعيا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد»[1].

بل إن هناك من النباتات ما يختلف لونه وحجمه حسب مراحل نموه، فيبدأ صغيراً أخضر، وما يزال يكبر حتى يحمر مثلاً، كبعض أنواع البلح، فإذا ما نضج رطباً، فتغير لونه إلى اللون الأسمر، وهناك ما يكون أخضر قبل النضج، أصفر فاقعا عند النضج، مائلا إلى البنية عندما يصير رطبا. وهذه كلها أبدا ما حادت عن قانون تسخيرها الذي وظفها فيه مسخرها - فاطر الفطرة ومبدع الخلقة - ثم نجد منها ما يصلح لطعام الحيوان دون الآدمي كالحشائش، ومنها ما يصلح للإنسان والحيوان، ومنها ما يصلح ثمره لطعام الإنسان وبقاياه لطعام الحيوان. فهل هذا التصنيف يجري عبثا؟ أم أنه قدر يسير الله الله. هذه الأشياء، التي جعلها دليلا على وجوده وتدبيره وقدرته، وتسخيره كما خلق كونه كله لخدمة الإنسان. وصدق الله العظيم: وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه، ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون» الجاثية: ١٣. فهل للنبات عقل يعقل به؟ أو اختيار يختار به؟ فيبني مراحل نموه على أساس عقله، ويختار طعمه ولونه ونظام حياته؟ أم أنها فطرة الله الذي بيده الملك، فاطر السموات والأرض.

---

(١) مختصر تفسير بن كثير : ج٢ ص ٢٧٠.

وفي كيفية اكتساب النبات أسس حياته يقول لنا كريسي موريسون: «تعتمد حياة كل نبات - كما هو معروف - على المقادير التي تكاد تكون متناهية الصغر، من ثاني أكسيد الكربون الموجود في الهواء، والتي يمكن القول: بأنه يتنسمها، فأوراق الشجر هي رئات لها القدرة في ضوء الشمس على تجزئة ثاني أكسيد الكربون العنيد إلى كربون وأوكسجين، فيلقط الأوكسجين، ويحتفظ بالكربون متحدا مع هيدروجين الماء الذي يستمده النبات من جذوره، وبكيميا سحرية، تصنع الطبيعة في النبات السكر وغيره، وتنمي النباتات والأزهار، ويغذي نفسه، وينتج فائضا يكفي لتغذية كل حيوان على وجه الأرض، وفي الوقت نفسه يلفظ النبات الأوكسجين الذي نتنسمه، والذي بدونه تنتهي الحياة بعد خمس دقائق، فدعنا - إذن - نقدم احترامنا في تواضع إلى النبات. فكل النباتات تبني تكوينها من الكربون والماء على الأخص، والحيوانات تلفظ ثاني اكسيد الكربون، بينما تلفظ النباتات الأوكسجين، ولو كانت هذه المقايضة غير قائمة، فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأوكسجين، أو كل ثاني أكسيد الكربون تقريبا، ومتى انقلب التوازن تماما ذوي النبات أو مات الإنسان، فيلحق به الآخر وشيكا. وقد اكتشف أخيرا أن وجود ثاني أوكسيد الكربون بمقادير صغيرة هو أيضا ضروري لمعظم حياة الحيوان، كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأوكسجين.

ويجب أن يضاف الهيدروجين - أيضا -، فبدونه كان الماء لا يوجد، ونسبة الماء كبيرة لدرجة تدعو إلى الدهشة، ولا غنى عنه مطلقا، ودورته من البحار للأمطار للأنهار آية على عظمة الله - سبحانه وتعالى-، وإن الأوكسجين، والهيدروجين، وثاني أكسيد الكربون هي العناصر البيولوجية الرئيسة التي تقوم عليها الحياة بنظام دقيق، دون مصادفة بنسبة واحد إلى ملايين[1].

---

(١) كريس موريسون - العلم يدعو للإيمان: ١٧ - ٣٧ باختصار يسير.

وهذا الذي أشار إليه موريسون هو ما يطلق عليه العلماء: كيميا التمثيل الضوئي. وهي عملية تبدو بسيطة في ظاهرها، إلا أنها ليست كذلك، فهي تقوم على معادلات جبرية معقدة، ذكرها العلماء، وهم بطبيعة الحال لم يستمدوها من خيال أو وهم أو ظن، وإنما نتيجة تجارب أجروها على نباتات، وتتلمذ على فطرتها، كما خلقها الله سبحانه وتعالى. وهذه الدراسات استمرت عقودا طويلة من الزمان، قاسوا خلالها التمثيل الضوئي وتتابعت جهود العلماء جيلا بعد جيل، حتى عرفوا أنواع الإشعاع التي يستفيد منها النبات من ضوء بنفسجي وفوق البنفسجي، . .إلخ.

والخلاصة : إن «النباتات الخضراء تستعمل الطاقة الضوئية لتحليل أو تنشيط الماء، حتى يمكنه أن يتفاعل مع جزئيات ثاني أكسيد الكربون، وذلك هو التفاعل الأساسي لجميع طرق التمثيل الضوئي. وتستخرج هذه النباتات طاقة كافية من الضوء، لاستخلاص الأوكسجين من الماء، وتطلقه على صورة خالصة، والبكتريا ضوئية التغذية، ينقصها الطريقة التي تحفز على إطلاق الأكسجين، ويجب أن يكون عندها الضوء، ومادة «تعطي الأيدروجين، مثل كبريتيد الأيدروجين - لها القدرة على أن تتأكسد بالزيادة من أكسجين التفاعل، وأخيرا فإن البكتريا ضوئية التغذية تتصرف في الظلام، وكأنها كيماويه التغذية، فهي تستمر في استعمال مادة تعطي الأيدروجين كما تفعل في الضوء، ولكنها تضحي بكمية زائدة من الأيدروجين بجعله يتحد بأكسجين الهواء، لإطلاق الطاقة، لتقوية التفاعل، عوضاً عن الضوء»[1]. وهناك دراسات حول النبات، وأدوار نموه، وكيف يقوم بامتصاص ما يحتاج، إما من الأرض، وإما من الجو . كما أشار موريسون إلي أنه لو تغير نظام التمثيل الضوئي لمات النبات والإنسان والحيوان، لارتباط حياة كل منها بالآخر. فالله الذي خلق الأرض وقدر فيها أقواتها، هيأ لعمارها ما يقيم حياتهم، ومن العجيب أنه كما تحضن الأم جنينها فتغذيه بغذائها يفعل النبات ذلك أيضا في

(١) ح.هـ.ش - في فجر الحياة ص ٢٣٨ : ٢٣٩ ترجمة الدكتور عبد الحليم منتصر.

إطراد يكشف عن ثبات القوانين الإلهية في الخلقة، فعندما نبذر حبا ونواريه تحت الثرى، ونرويه بالماء، تدب فيه الحياة، فيبدأ بفلقتين، أو وريقتين وجذير ضعيف لا يقدر على امتصاص الغذاء والهواء من الجو والأرض، هنا تغذيه الحبة أو النواة، بما أودع الله فيها من غذاء، حتى يشتد عوده، فتذوب البذرة لأنه يكون قد استغنى عنها. ثم تبدأ دورة الحياة فيه حين يقوى على امتصاص غذائه من الأرض والجو. كل جزء منه له وظيفته التي وظف فيها، فللورق وظيفته، وللجذر وظيفته، والنبات لا يسعى على الأرض ولا ينتقل من مكان لمكان، وهنا نجد «أن الله سبحانه وتعالى يرسل له غذاءه مسخرا في ضوء الشمس، فيمتص منه ما يقيم به حياته، وحين يقع ضوء الشمس على المادة الخضراء تمتص بعضه، لتستعين بطاقته على تمثيل ثاني أكسيد الكربون والماء، فتحول ما تمتصه إلى طاقة كيماوية كامنة في نواتج التمثيل الخضري التي يتغذى بها النات بعد. لذلك كان التمثيل الخضري لا يجري إلا نهاراً، في حين أن التنفس يجري نهارا وليلا، وكان التمثيل الخضري في الشمس أقوى منه في الظل، وله حد لا يزيد عليه، لأنه متوقف على مقدار ثاني أكسيد الكربون في الهواء.

والتمثيل الخضري يتوقف بعد المادة الخضراء على ثلاثة أشياء: الضوء، وثاني أكسيد الكربون، والماء، وليس أفعل أجزاء الضوء في التمثيل الخضري هي البنفسجي وما فوقه، وإنما أفعلها هو اللون الأصفر.

وثاني أكسيد الكربون - على ضآلة نسبته في الهواء، وتغيرها حسب الفصول والأمكنة -، قريب من وجه الأرض، ونسبته بالحجم من ١٢ : ١٣ في كل ١٠,٠٠٠ ، وتتغير لأقل من ذلك في الصيف والشتاء، وتزداد حيث يكثر الاحتراق أ والتعفن أو التخمر. ثم تقوم الرياح وانتشار الغازات بمزج الهواء.

فانظر إلى عجيب صنع الله كيف جعل الموت ضروريا للحياة، وكيف خلق الحياة من نواتج التعفن والتحلل بعد الموت، إن الله يخلق الأحياء من عناصر قليلة، لكنها محدودة المقدار في الأرض، يمكن أن تستنفد في جيل

أو أجيال، لتنتهي الحياة على الأرض قاطبة، ولذا لم يكن بد لاستمرار الحياة من تعاقب الحياة والموت جيلا بعد جيل، في الإنسان والحيوان، لتتجدد بموت جيل المادة التي يخلق الله منها الجيل الذي بعده»[1]، وبذا تستمر الحياة في الدوران.

وقد أشار القرآن إلى تلك العمليات في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ الحج ٣٦.

وقوله: «﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ نوح ٧١ : ٨١. وقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ الواقعة ١٧ : ٤٧.

وقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ يس ٧٨: ٨٠.

وفي الآية الأولى إشارة إلى أهمية الماء، ليقوم الجزء الأرضي من النبات بدوره في مده بالغذاء والماء، وفي الآية الثانية إشارة إلى بدء خلق الإنسان، وأنه ينبت كما ينبت النبات، وأمد حياته مترتب على حياة النبات، فلولاه ما وجد غذاءه، ولا غذاء حيواناته. وفي آية ياسين وصف الشجر بالخضرة، ومما لا شك فيه أن لها أثرا كبيرا في نموه وبنائه، واتساق فروعه وقوة سوقه، التي كلما قويت كانت أكثر اختزانا للطاقة عندما يوقد فيها النار، وكان القدماء يفهمونها حسب وسائلهم بأنهما شجرتان يؤتى من هذه بفرع، ومن الأخرى بفرع، ثم يضرب أحدهما بالآخر، فتتولد النار، ومن الجدير بالذكر أن تعفن النبات أو حرقه يعيده إلى بخار ماء، وثاني أكسيد الكربون، ورماد، وأملاح. وهو ما يقابل العظم الرميم في الإنسان، فالنبات يبعث بعد

(١) باختصار من: الإسلام والعلم للدكتور القمراوي ٤١٣ : ٤١٥.

فناء، ويخلق بواسطة المادة الخضراء من نواتج تعفنها واحتراقها. وكذلك يبعث الإنسان.

وإذا ما كان من قوانين الفطرة وجود الذكر والأنثى في الإنسان والحيوان فإن من شمول هذا القانون وجود ذلك الشيء في عالم النبات. ففيه الذكر والأنثى، ويؤخذ من الذكر للقاح الأنثى بعمل الإنسان كما هو في النخيل. وبغير عمل الإنسان في أحيان كثيرة، إذ يسخر الله الريح للقيام بهذا العمل، وصدق الله العظيم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يس آية٦٣. ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ الذاريات آية ١٩.

وعندما قدم الرسول الكريم إلى المدينة وجد الأنصار يحملون من ذكر النخل إلى أنثاه . . إلخ.

وقد أشار القرآن إلى عمل الريح في اللقاح في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ الحجر آية ٢٢.

يقول الماوردي في تفسيره: **﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾** فيه قولان: أحدهما: لواقح السحاب حتى يمطر، قاله الحسن وقتادة وكل الرياح لواقح غير أن الجنوب ألقح.

الثاني: لواقح للشجر حتى يثمر. قاله ابن عباس»[1].

وفيها يقول الإمام ابن كثير: «أي تلقح السحاب، فتدر ماء، وتلقح الشجر، فتفتح عن أوراقها وأكمامها»[2].

فلتنظر إلى ما أودعه رب العزة في المخلوقات المسَّخرة للخدمة الإنسانية، وكيف تقوم الرياح المسخرة بالعمل نيابة عن الإنسان.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى اختلاف الطعوم والألوان وما تحتويه الثمار من

---

(١) تفسير الماوردي: ج٢ ص ٣٦٥، ط ١ وزارة الأوقاف الكويتية.

(٢) مختصر تفسير بن كثير: ج٢ ص ١٣٠.

فيتامينات - فإننا نجد العجب العجاب، فكيف يمتص كل ثمر أو شجر من الأرض - وهي طين أو رمل - ما يحيله إلى طعوم في غاية الحلاوة؟ ولا علاقة بين طعمها ولونها، وطعم الأرض المنزرعة فيها ولونها. إن أجهزة الإنسان الهضمية والتنفسية والعصبية . . .إلخ، لها وظائف تقوم بها، وتنتقي مما هو موجود في الوجود ما تحتاجه. وما زاد على الحاجة أو لم يتجانس معها لفظته، أو أخذت بعضه ورفضت بعضه. والتساؤل الذي يفرض نفسه علينا: كيف يتم امتصاص الطعوم واستخلاص الألوان؟ إن صنع تلك الطعوم صناعيا أمر بالغ الصعوبة، برغم أنه تتلمذ على مخلوقات الله، وبرغم تمتع الإنسان بالعقل الراقي، والقدرة على التجربة، ليصل إلى ما يريد، فكيف يعقل النبات ذلك؟ كيف يصنع الطعوم؟ وكيف يركز من ألوان الطيف ألوانه؟ شيء مذهل حقا أن نرى آلاف وملايين النباتات تؤدي دورها حسب فطرتها، لا تخطيء ولا تتحول عن عمل مسخرها، سبحانه وتعالى. والغريب أنه إذا مرض الإنسان حدثت تغيرات في أجهزته، فلم يقدر على أداء وظائفه العادية. وكذلك النبات قد يمرض فيتغير لون ورقه وثمره وحجمه وطعمه. ويصبح ذلك إنذارا للإنسان بوجوب علاجه، ليعود لأداء دوره المفطور عليه، وهذا يردنا إلى الآية القرآنية: ﴿**الذي خلق فسوى**﴾. كما تلفت آية الأنعام الأنظار إلى الاستدلال بالمفطور على عظمة فاطره: «انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه». وعلم صنع الألوان وتوليدها من بعض علم أبدعه الإنسان بالتعليم والتعلم. فمن علم الأشجار والنباتات أن للنبات ضحكات وعبسات، يلمحها الذي يأخذ نفسه بتأمله، ومن نظر إلى الثمر ناضجا على الأشجار أحس أن الأشجار تبتسم منتشية بما تحمله، متدللة به، كأنه عقد يزين جيد الشجرة التي تحمله، وهو إذا مرض أو عطش أو قل السماد من حوله هزل وتضاءل كأنه حزين على فقد ما يقيم أوده، ويعينه على استمرار أدائه لوظائفه.

الفصل الرابع
الإسلام
شريعة الوجود من أزله إلى أبده

كل الأنبياء دعوا إليها

القرآن كتاب إسلام البشر لله - من آدم إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو وثيقة إسلام الكون لله، بسماواته وأراضيه وكائناته، العاقلة وغير العاقلة. فكله يسبح ربه، فهمنا لغته أو لم نفهمها. فما من نبي إلا ودعا إليه، ودان به، وخاصم وحارب وقاتل، ولربما قتل من أجله.

وقد ذكر القرآن الكريم: أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - دعوا - ربهما وهما يبنيان بيته المحرم - أن يجعلهما مسلمين له، ومن ذريتهما أمة مسلمة له، فقال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾.[1].

قال الإمام ابن كثير: (قال ابن جرير: يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك)[2].

كما حذر رب العزة من الميل عن ملة إبراهيم، واعتبره سفها، وذكر أن الأنبياء يتواصون على الإسلام. فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ

(١) البقرة: ١٢٨.

(٢) مختصر ابن كثير: ج١ ص ١٣.

ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾[1].

فشريعة الاسلام يلقنها الآباء لأبنائهم ويوصي السلف الخلف بها.

فإذا تساءلنا عما قبل إبراهيم، من آدم - إلى إدريس ونوح، إلى هود، إلى صالح - أجابنا القرآن الكريم: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[2]. وهل يسكن الجنة إلا من أسلم لله؟ فإذا ما أكل آدم وحواء من الشجرة فخرجا من الجنة كانت توبة الله عليه كلمات تلقاها منه. قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[3]. وهل يتلقى الوحي عن الله إلا مؤمن به.

فأما نوح فشرعه ما وصى الله به محمدا وغيره من بعد نوح. يقول تعالى: ﴿* شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[4]. فقد قرن سبحانه وتعالى ما وصى به نوحا بما وصى به محمداً - صلى الله عليه وسلم -، وهو الإسلام.

وهود يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[5]. وصالح يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾. (الأعراف: ٧٣)

---

(١) البقرة: ١٣٠ - ١٣٦.
(٢) الأعراف: ١٩.
(٣) البقرة: ٣٧.
(٤) الشورى: ٣١.
(٥) الأعراف: ٦٥.

ويرسلها القرآن قانونا عاما : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[1].

كما أن انحراف أهل الكتاب إنما كان بغيا وظلما وكفرا، يستحقون عليه سريع العقاب من الله عز وجل. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾[2].

وكل دين غير الإسلام مرفوض، لأنه دين من في السموات والأرض، طوعا وكرها. يقول تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[3]. ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[4].

فالمسلم طائع لله طوعا، والكافر واقع فيه أمر الله كرها، فهو مستسلم دون رضاه، مقهور، ولو لم يمتثل للأمر، وهل يملك إلا إنفاذ شؤونه حسبما تجري به قوانين الله في الكون؟ فهو خاضع كرها، ثم كيف يقبل من عبد دين ليس فيه تصديق بدين الله، ولا انقياد لأمره، وكل من في السموات والأرض مأمور، وعليه امتثال الأمر، فإن عصي اليوم فلن يعصي غدا، لأنه عبد لله سيأتي يوم القيامة ذليلا منقادا. ولو ملك ما أطاق الوقوف بين يدي الله. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾[5].

---

(١) الأعراف : ٣٧.
(٢) آل عمران : ١٩.
(٣) آل عمران : ٨٣ : ٨٥.
(٤) مريم : ٩٣.
(٥) الأنعام : ٢٧.

فأما أهل الكتاب فأنبياؤهم مسلمون، يدعون إلى الإسلام ويحكمون به. يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾[1].

وحواريو عيسى - عليه السلام - مسلمون. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾[2].

ويقول: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾[3].

وعيسى يقول لقومه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾[4].

والسحرة حين أسلموا يقولون لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[5].

وسليمان - عليه السلام - يدعو ملكة سبأ وقومها إلى الإسلام، فيقول ربنا عنه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[6].

ثم هي تسلم، وتقر بالإسلام، ويحكي الله عنها: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[7].

هذا هو إسلام الإنسان. فما علامات إسلام الكون؟ لقد وردت في القرآن الكريم آيات عن سجود الكون وتسبيحه بكل ما فيه، وأن البشر منهم غير المسبح، فأما الكون فأبدا ما رفض الإسلام. يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[8].

---

(١) المائدة: ٤٤.
(٢) المائدة: ١١١.
(٣) آل عمران: ٢٥.
(٤) المائدة: ١١٧.
(٥) الأعراف: ١٢٦.
(٦) النمل: ٣٠: ٣١.
(٧) النمل: ٤٤.
(٨) الرعد: ١٥.

ويقول : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

ويقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾[3].

وإذا تساءلنا عن كيفية التسبيح جاءنا الجواب من الله: أنه يعلم تسبيح كل شيء. يقول **﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾**. أي أنه أرشد كل مخلوق إلى طريقته في عبادته - عز وجل - وهو عالم بكل ذلك، لا يخفى عليه منه شيء. فالتسبيح قد يكون بلسان الحال، بمعنى الخضوع، أو بلسان المقال. والله أعلم به.

ويعلق الإمام ابن كثير على آية الإسراء: **﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده...﴾**. الآية آنفة الذكر بقوله: أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله. **﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾**. لأنه بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات. كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود: أنه قال: (كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وفي حديث أبي ذر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم). وهو حديث مشهور في المسانيد.

وروى الإمام أحمد عن أنس - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم: أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم، ورواحل، فقال لهم: اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسيَّ

---

(١) الأنبياء : ٧٩.
(٢) الإسراء : ٤٤.
(٣) الحج : ١٨.

لأحداثكم في الطرق والأسواق. فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرا لله منه.

وفي سنن النسائي، عن عبد الرحمن بن عمرو، قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع. وقال: «نقيقها تسبيح».

وقد اتفق الشيخان فيما رواه ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال: ﴿**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما: فكان لا يستنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة. ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: ولعله يخفف عنهما ما لم ييبسا**﴾. وقد قال العلماء: إنهما ما دام فيهما خضرة فهما يسبحان، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما[1]. وقد قال - صلى الله عليه وسلم-: قرصت نبيا من الأنبياء نملة، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة!» [2]. فما من عالم في هذا الملكوت الرحب إلا وأدى لله فروض الولاء بلغة جهلها البشر، وعجزوا عن ترجمتها. والذي خلق هو الذي علم وهو الذي علَّم، كل ذرات الأرض لله ساجدة، وجيمع مجرات السماء لأمره طائعة، والساكن والمتحرك في قبضته خاشع.

فالعوالم الصامتة والناطقة مستسلمة له، ومفتقرة إليه، ومؤملة فيه، والرعد يسبح بحمده، «ويسبح الرعد بحمده».

إن الأشجار انتشت من كثرة ذكرها لله بانحناء سوقها له، وبتمايل أغصانها حياء منه، وباستواء ثمرها استجابة لأمره.

لقد شهدت الأشجار بعظمة الرسالة والرسول، وبهذا قدمت ولاءها لرب الرسول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ النساء آية ٨٠.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ج٢ ص ٣٧٩: ٣٨٠.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعا.

وليس على الله بمستنكر أن يصنع للشجر ألسنة ناطقة بالحق، داعية إليه مؤمنة به.

عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، فقال: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: إن دعوت هذا العذق من النخلة تشهد أني رسول الله؟ فدعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجعل العذق ينزل من النخلة حتى سقط إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: السلام علكيم يا رسول الله، ثم قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ارجع إلى موضعك، فعاد إلى موضعه والتأم، فأسلم الأعرابي عند ذلك. رواه الترمذي[1].

اتفاقها مع الشرائع السابقة

شمل الإسلام جملة من العبادات والمحرمات والأخلاق، ليس هو بدعا في كثير منها، وليس المؤمنون بالنبي محمد صلى الله عليهه وسلم، أول من كلفوا بها، وإن اختلفت بعض صورها في دين محمد - صلى الله عليه وسلم - عن ذي قبل. ولكن يبقى الإسلام مهيمنا على ما سبقه ومصدقا له، وأصول العقائد والعبادات والأخلاق متوافقة في جميع الأديان. ففي العقائد: الإلهيات والنبوات والسمعيات متوافقة. والوصايا الأخلاقية - تقريبا - واحدة، كما هي على لسان موسى هي على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم -، فإن قيل فكيف نفهم قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2]. كان الجواب: إن الشرائع متفقة في الأصول. ولكن: قد يكون شيء من الشرائع حراما هنا حلالا في شريع أخرى، أو بالعكس، أو خفيفا هنا شديدا في شريعة أخرى. وذلك لحكم بالغة من الله - سبحانه وتعالى -، يحل هنا ما حرم هناك، أو العكس، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه[3].

---

(١) د.عبد الرشيد صقر في (مجلة منار الإسلام) العدد ٩، من السنة الحادية عشرة، مايو ١٩٨٦م.

(٢) المائدة : ٤٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير : ج١ ص ٥٢٤.

وفي حديث القرآن عن عيسى - عليه السلام - يقول: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾. آل عمران آية ٥٠.

وعن محمد - صلى الله عليه وسلم - يقول: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ الأنعام آية ١٤٥.

وفي اتفاق الشرائع واختلافها يقول الإمام الدهلوي: اعلم أن أصل الدين واحد، اتفق عليه جميع الأنبياء، وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج. فكلهم - عليهم السلام - بعثوا بتوحيد الله وتنزيهه عما لا يليق بجانبه، وأن حقه على عباده تعظيمه والتقرب إليه بشرائعه، والإيمان برسله واليوم الآخر، والتقرب إليه بالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والدعاء والنكاح وحرمة السفاح وغير ذلك. فهذه أصول الدين المتفق عليها.

وإنما الاختلاف في صور الأمور وأشباحها فقد كان أهل الكتاب في صلاتهم يستقبلون بيت المقدس، فأمرالمسلمون باستقبال الكعبة، وفي شريعة موسى الرجم للزاني فقط، وفي ديننا: الرجم للمحصن، والجلد لغير المحصن. وفي شريعة موسى: القصاص فقط، وفي شريعتنا: القصاص والدية، ولكل قوم من التشريع ما يناسبهم[1].

وعندما نتصفح القرآن الكريم نجد آيات كثيرة تشير إلى اتفاق الشرائع في كثير من الأمور، مما يؤكد لنا أن الإسلام شريعة الوجود.

فمثلا يأمر الله بني إسرائيل - كما يحكي القرآن - بجملة من المأمورات. منها: شكر النعمة، والإيمان الذي هو عهد الله على عباده، وتقوى الله، والإيمان بما أنزل الله على محمد .... إلخ، وطبيعي أن هذه المأمورات التي يحكى القرآن أمر الله لهم بها هي مأمورات ومنهيات لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم -يقول تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ

(١) حجة الله البالغة، ج١ ص ٨٦ ـ ٨٧، باختصار شديد - دار التراث بالقاهرة.

ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ * أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾[1].

وبعد آيات يعود القرآن لبني إسرائيل حاكيا عنهم: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[2].

ثم يقول في سورة الأعراف: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3].

وفي سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[4].

وفيها حكاية عن أمر الله لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾[5].

وفي آل عمران: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[6].

هذه المجموعة من الآيات تعرضت للصبر والصلاة، والوفاء بالعهد، والزكاة، وبر الوالدين، وذي القربى، واليتامى، والمساكين، والصيام،

---

(١) البقرة : ٤٠ : ٤٦.
(٢) البقرة : ٨٣.
(٣) الأعراف : ١٧٠.
(٤) البقرة : ١٨٣.
(٥) البقرة : ١٢٥.
(٦) آل عمران : ٤٣.

والحج. أفبعد هذا شك في أن الإسلام دين الوجود؟ وأن ما أمر الله به ونهى عنه في الشرائع السابقة كثير منه أمر به ونهى عنه القرآن الكريم.

وحتى تكتمل الصورة - وهي أن الاسلام شريعة الوجود - أتابع ذكر بعض الآيات القرآنية حول أمور تكمل الصورة السابقة.

فبنو إسرائيل أمروا بالتوبة كما أمرنا بها، وإن اختلفت الكيفية يقول تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[1].

والنذر كان معروفا لديهم: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾[2].

ويقول: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[3].

ويقول في وفاء الكيل والميزان: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[4].

وفي تحريم إتيان الرجال يذكر القرآن تحريمه، ليحرمه على أمة محمد - صلى الله عليه وسلم -، وهكذا نجد أن شريعة الإسلام صاحبت الكون منذ آدم، وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وحتى تكتمل عناصر صورة أن الإسلام شريعة الوجود أذكر ما اشتهر عند اليهود بأنه الوصايا العشر، لنري مدى اتحاد شرائع الله بعضها مع بعض، وأن الدين عند الله الإسلام لا سواه.

يقول الرب لموسى:

١ - أنا الرب الهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.

---

(١) البقرة: ٥٤.
(٢) آل عمران: ٣٥.
(٣) النساء: ١٣١.
(٤) الأعراف: ٨٥.

٢ - لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة مما في السماء من فوق، ومما في الأرض من تحت، ومما في الماء من تحت الأرض، ولا تسجد لهن، ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك، إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأصنع إحسانا إلى آلاف من محبي وحافظي وصاياي.

٣ - لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يبريء من نطق باسمه باطلا.

٤ - اذكر يوم السبت - الراحة - لتقديسه، ستة أيام تعمل، وتصنع جميع عملك، وأما يوم السبت للرب إلهك، لا تصنع عملا ما، أنت وابنك وعبدك وامتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك.

(من البديهي رفض القرآن لهذه الوصية حسبما ورد في سورة ق ﴿**ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب**﴾.

٥ - أكرم أباك وأمك، لكي تطول أيامك على الأرض، وحتى يعطيك الرب إلهك أبناء بررة.

٦ - لا تقتل.

٧ - لا تزن.

٨ - لا تسرق.

٩ - لا تشهد على قريبك شهادة زور.

١٠ - لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره[١].

---

(١) السيد محمود أبو الفيض المنوفي: وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٢٨ دار العالم الإسلامي بالقاهرة.

ومن الممكن اتفاق معظم ما جاء في هذه الوصايا مع الإسلام، ما عدا الرابعة منها، وهذا دليل واضح على أن الإسلام شريعة الوجود: وهناك - بعد - مزيد بيان لهذه الحقيقة.

رعاية المصالح البشرية

هذه النقطة تتفق فيها الشريعة الإسلامية مع ما صح من الشرائع السابقة التي حكى القرآن طرفا من شرائعها، ويعتبر هو المصدر الوحيد الصحيح الذي نستقي منه شرائع من قبلنا.

وهناك بعض المسائل في التشريع الإسلامي - مما أباحه الله أو حرمه - تثبت للمسلمين وغيرهم أن الوجود لا يستقيم بغير الإسلام، حيث إن مصلحة الوجود البشري منوطة بتطبيق هذه الشريعة، وقد ارتفعت أصوات متأثرة بالغرب تنادي بالتأسي بالغرب في بعض الأمور، منها مثلا منع تعدد الزوجات، وتقييد الطلاق. وهؤلاء يبدو أنهم متأثرون ببعض الأفكار الصليبية المحرفة عن شرائع الله المحكمة. وفي الوقت نفسه يدحض الواقع الغربي حجة هؤلاء، وينادي الغربيون العقلاء بأنه لا سبيل لنظافة أخلاق الرجال والنساء هناك، إلا بإباحة الطلاق، وتعدد الزوجات، حيث إن فيها حلا لمشاكل كثيرة يعاني منها المجتمع الغربي.

تعدد الزوجات

وإذا بدأنا بتعدد الزوجات فلماذا ينسب هذا النظام إلى الإسلام وحده؟

= الوصايا العشر التي أمر الرسول بتلاوتها على الناس وردت في سورة الأنعام: ﴿* قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ الأنعام الآيات ١٥١ : ١٥٣. ووردت في سورة الإسراء الآيات من ٣٣ : ٣٧.

ويعاب عليه وحده إقراره؟ مع وجوده في شتى الشرائع، وفعل غالبية الأنبياء له؟

وفي ذلك يقول أستاذنا الدكتور علي عبد الواحد: ويجدر بنا أن نكشف عن تضليل من يوهمون الناس بأن الإسلام هو الذي أتى بتعدد الزوجات، وأنه يكاد يكون مقصورا على من يدينون به، وأن المسيحية قد حرمته تماما، وأنه لا ينتشر إلا في الشعوب المتأخرة.

والحقيقة: أنه كان سائدا قبل الإسلام في شعوب كثيرة. منها: العبريون، والعرب، والصقالبة، أو السلافيون التي ينتمي إليها معظم أهالي البلاد التي نسميها الآن: روسيا، وليتوانيا، وواستونيا، وبولناي، وتشيكوسلوفاكيا، ويوغسلافيا. وعند بعض شعوب الجرمان والسكسون التي ينتمي الهيا الآن معظم أهالي ألمانيا، والنمسا، وسويسرا، وبلجيكا، وهولندا، والدانمارك، والسويد، والنرويج، وإنجلترا.

وهو لا يزال إلى الآن منتشرا في: أفريقيا، والهند، والصين، واليابان. فليس صحيحا أنه عند المسلمين فقط، ولا علاقة للمسيحية في الأصل بتحريمه، وليس في الإنجيل نص بذلك. ولكن أكثر الشعوب التي انتشرت فيها المسيحية أولا كانت في كفرها لا تبيح التعدد، فسارت على ما كانت عليه بعد دخولها في المسيحية، ثم استقرت الكنيسة على ذلك، واعتبرته من تعاليم الدين، على الرغم من خلو الانجيل من نص على التحريم، وقد لاحظ علماء الاجتماع والحضارة من أمثال: وسترمارك، وهوبهوس، وهيلبير، وجنزبرج: أن التعدد وجد في الشعوب المتحضرة، وأن وحدة الزوجة وجدت في الشعوب المتخلفة.

وليس ما سبق تبريراً لإباحة الإسلام له، فنحن لا نعبأ بعقائد الناس الباطلة[1].

---

(١) د. علي عبد الواحد في: حقوق الإنسان في الإسلام، ص ٩٧: ٩٩، بتصرف.

ويؤكد ما ذهب إليه الدكتور علي عبد الواحد: ما ذكره الدكتور أحمد الغندور، يقول عن نظام التعدد: فقد كان موجودا عند: الأثينيين، والصينيين، والهنود، والبابليين، وقدماء المصريين. وقد أباحته اليهودية، وعدَّد أنبياؤها: كداود ، وسلميان. وليس في كتب المسيحية نص صريح بتحريم التعدد، وقد بقي إلى القرن السادس عشر سائدا في العالم المسيحي، وفي القرن السادس عشر أباحه المصلحون الدينيون من الجرمان في بعض الأحوال، فانتشر بين الطبقات العليا، ولا يزال المورمون في أوروبا وأمريكا يمارسون التعدد إلى الآن، مع تحريم المسيحية المحرفة له.

يقول جرجي زيدان : فالنصرانية ليس فيها نص صريح يمنع أتباعها من التزوج بأكثر من واحدة. ولكن رؤساءهم القدماء وجدوا الاكتفاء بزوجة واحدة أقرب لحفظ نظام العائلة واتحادها[1].

فإذا ما تساءلنا عن الحكمة من وراء إباحة الإسلام لتعدد الزوجات وجدنا أمامنا عدة أشياء، منها:

١ - أن عدد النساء يزيد في أمة من الأمم أو شعب من الشعوب عن عدد الرجال، بسبب أن الذكور أكثر تعرضا للموت في أثناء الولادة أو الطفولة، كما تدل الظواهر والإحصائيات، وأنهم وقود الحرب، ولذا يموت منهم الملايين فيها، وفي ذات الوقت لا يموت من النساء إلا بضعة آلاف، حتي ليقال: إن بلدا كألمانيا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية كان تعداد الرجال بالنسبة للنساء واحدا إلى عشر، وأن قتلى الحرب العالمية الثانية يقدر بعشرين مليونا، في حين أن من قتل من النساء لا يتجاوز عدة آلاف.

٢ - أن القادرين على أعباء الزواج من الرجال قليلون، وهذا يجعلهم يحجمون عنه في نفس الوقت الذي تصبح فيه كل فتاة بالغة صالحة للزواج دون عائق.

---

(١) مذكرات في الثقافة الإسلامية : ص ١٨٩ : ١٩٠، ط جامعة الكويت.

٣ - بالإضافة إلى عقم الزوجة، أو إصابتها بمرض يحول دون صلاحيتها للحياة الزوجية، وإذا لم تقدر النساء على إشباع رغباتهن عن طريق حلال فماذا يفعلن؟ أليس من المعقول والأخلاقي أن تشارك المرأة أخرى في رجل من أن تحرم بالمرة؟ أليس ذلك يحقق لها إشاعا غريزيا واستقرارا نفسيا، وإنجابا تقر به عينها؟ وهل العنوسة خير منه؟ يقينا التعدد خير من الحرمان والعنوسة ، وقد أدى تحريم التعدد في أمم الغرب المسيحي - مع وجود دواعي التعدد وكثرة حدوثها - إلى كثير من مظاهر الاضطراب العائلي، والانهيار الخلقي، وإلى انتشار الفسق والفجور، وشيوع نظام المخادنة، واتخاذ الازواج للخليلات، والزوجات للأخلاء، وهجر الأزواج والزوجات لمنزل الزوجية. وفرار الزوجات مع عشاقهن وبالعكس، وأصبحت هذه الأمور في أوروبا وأمريكا شيئا عاديا، وعادت الأسرة لا قيمة لها، وسرى الشك والارتياب في الأنساب[1].

أفبعد هذا التوضيح يوجد من يشك في أن الذي أوجد الوجود شرع له ما يلائمه وما يتناسب معه من الأزل إلى الأبد، وهل نغلق باب الحلال ونفتح باب السفاح مع ما يجره ذلك على المجتمعات من كثرة أبناء الزنا والإجهاض وفشو الأمراض النفسية والعصبية والجسمية؟

الطلاق :

من دلائل دقة الإسلام وإحاطته بالفطرة البشرية: إباحته للطلاق مع إبغاضه له ولعن فاعليه من غير سبب، وتحريم ريح الجنة على من تطلبه لغير موجب، ومقت من يتسبب فيه بإفساد امرأة على زوجها، أو من تسبب فيه بإفساد رجل على زوجته، وهو ميثاق غليظ بنص القرآن، وهو كلمة الله، كما

(١) حقوق الإنسان في الإسلام : ٩٩ : ١٠٥، باختصار شديد.

أشار الرسول الأكرم في حجة الوداع في خطبته المشهورة: «فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وقد روى ابن عمرو - رضي الله عنهما: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: أبغض الحلال إلى الله - عز وجل - الطلاق[1].

ويقول - صلى الله عليه وسلم - فيمن يفسد المرأة على زوجها: «ليس منا من خبب امرأة على زوجها» [2].

وفيمن تفسد الزوج على زوجته: روى أبو هريرة: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا تسأل المرأة طلاق أختها، لتستفرغ صحفتها، ولتنكح، فإنما لها ما قدر لها»[3].

وفيمن تسأل الطلاق بغير سبب روى ثوبان رضي الله عنه: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقا من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة»[4].

وهو كفر بنعمة الله، لأن الزواج نعمة من نعمه، ولذا لا يحل إلا لضرورة، كارتياب الرجل في سلوك زوجته، ولذا قال تعالى: ﴿**إلا أن يأتين بفاحشة مبينة**﴾ وقال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾[5].

والأسباب الداعية للطلاق كثيرة، منها: سوء الطبع، وسلاطة اللسان، أو تطلع أحد الزوجين الى غير زوجه - سواء في ذلك المرأة أو الرجل - أو حمق أحدهما، أو جنونه، أو فقر الزوج، بحيث تتعرض المرأة للموت

---

(١) رواه أبو داود وغيره موصولا عن ابن عمرو، ومرسلا عن محارب بن دثار، وصحح البيهقي إرساله وقال: إن المتصل ليس بمحفوظ، كما رجح أبو حاتم الرازي المرسل أيضا. وقال الخطابي: إنه المشهور. تمييز الطيب من الخبيث: ص ٥ ط، صبيح ١٩٦٣.

(٢) رواه أبو داود والنسائي وابن حبان.

(٣) فقه السنة : ج٨ ص٧٨.

(٤) أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي.

(٥) النساء : ١٩ والطلاق آية ١.

جوعا، أو لابتذال عرضها - أو ثديها، أو نفرة أحدهما من الآخر، لعدم تطابق طبعيهما وتشاكلهما، لأن الأمر كما يقول الرسول: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها إئتلف، وما تناكر منها اختلف»[1].

وقد يكون السبب عقم أحد الزوجين، أو مرضه مرضا معديا، يمنعه من أداء وظائفه، أو غيبته غيبة تطول، بحيث لا يعلم أحي هو أم ميت، أو يحكم عليه بالسجن المؤبد، أو يرتكب جريمة رشوة أو سرقة، أو أية جريمة يصبح بعدها معرة لمن يقترن به، فمن حقها الفكاك منه، للاحتفاظ بسمعته نقية، ولكل الأسباب السابقة - وهي أسباب واقعية - أباح الإسلام الطلاق، ولهذا لما منعت المسيحية الطلاق لجأ الغربيون إلى استحداث قوانين مدنية تبيح الطلاق، وهم وحدهم من بين ملل العالم كلها هم الذين يسيرون على قانون مدني للاحوال الشخصية، وقانون ديني بينما كل الملل تسير على قانون ديني في أحوالها الشخصية، ولم يستطع رجال الدين منع ذلك. والسر عدم واقعية هذا النظام، لدرجة أن الزوجين يلفقان جريمة الزنا، أو يقران بها ليتخلص كل منهما من الآخر. وفي هذا يقول العلامة الإنجليزي بنذام في كتابه أصول التشريع: حقا إن الزواج الأبدي هو الأليق بالإنسان، والأوفق للأسرة، والأولى بالأخذ، ولكن إذا اشترطت المرأة على الرجل ألا تنفصل عنه حتى ولو حل الكره في قلبه لها مكان الحب، لكان ذلك أمرا منكرا، لا يسيغه أحد من الناس، وكذا لو طلب الرجل من المرأة ذلك، على أن هذا الشرط موجود دون أن يطلبه أحد الزوجين، إذ القانون الكنيسي يحكم به، فيقول للزوجين: انتما تقترنان لتكونا سعداء، فلتعلما أنكما تدخلان سجنا أغلق بابه، ولن أسمح بخروجكما، وإن تقاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء.

ثم يقول ساخرا: ولو كان الموت وحده هو المخلص من زواج هذا شأنه لتنوعت صنوف القتل، واتسعت مذاهبه[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) حقوق الإنسان في الإسلام: ص ٦٤، ٦٥.

فأما تفاهة الأسباب المؤدية إلى الطلاق عند الأوروبيين، وكثرة عدد حوادثه، فيذكر لنا الشيخ أبو الأعلى هذه الحقيقة يقول: وربما لا تزيد مدة الزوجية بين بعضهم على أكثر من ساعات، ويذكر أن أحد الوزراء في فرنسا طلقته زوجته بعد خمس ساعات، وربما طلقا لأسباب تافهة، كاشمئزاز أحدهما من غطيط الآخر في النوم، أو عدم حبه لكلب الآخر، وقد سجلت محكمة السين فسخها لأربعة وتسعين ومائتي عقد في يوم واحد. وفي سنة ١٨٤١، وقعت أربعة آلاف حالة طلاق في فرنسا، وفي سنة ١٩٠٠ سبعة آلاف ، وفي سنة ١٩١٣ ستة عشر ألفا، وفي سنة ١٩٣١ واحد وعشرون ألفا[١].

وهكذا نرى أن الأوفق الأخذ بنظام الإسلام، فلا نكون مع اليهودية وغيرها من التشريعات المدنية الأوروبية القائلة بجوازه لأتفه الأسباب، ولا نكون مع المسيحية المانعة له مهما كان السبب في بعض دياناتها : كالكاثولوكية، أو المجيزة بأسباب ثلاثة هي: خروج أحد الزوجين من الملة المسيحية، أو محاولته قتل الآخر، أو زناه.

هذا مع العلم بأن الطلاق موجود في شريعة حمورابي، وعند اليونان قديما، وعند الرومان قبل دخولهم في المسيحية، عندما أصدر الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٣١م قانونا قيد به حرية الطلاق، ولكنه لم يستطع تنفيذ هذا القانون، حتى جاء جوستنيان، فقيده بأنه لا يقع إلا بسبب زنا الزوجة أو محاولة أحد الزوجين الاعتداء على الآخر، أو الجنون، أو العجز، أو العقم[٢]..

وللرجال عليهن درجة :

دعوات كثيرة ترفع داعية لمساواة المرأة بالرجل،اقتداء بالمرأة

---

(١) الحجاب : ص ٩٥، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٨.

(٢) د. أحمد الغندور: الأحوال الشخصية في التشريع الإسلامي ٢٩٩ ، ٣٠٠ باختصار ط ثالثة ١٩٨٥ مكتبة الفلاح بالكويت.

الأوروبية، ومع أن الإسلام قد أزال الظلم الواقع على المرأة فمنع عضلها، والإساءة إليها، وحض على عشرتها بالمعروف، وحرم وأدها، وسوى بينها وبين الرجل في استحقاق الحياة والملكية، والمسئولية الدنيوية والأخروية. إلا أنه بقيت مسألة الميراث والشهادة.

فأما الميراث: فإن المرأة مع أنها تأخذ نصف ما يأخذ الرجل فهي أحظى منه، لأنها تأخذ ما تأخذه دون تبعات، ودون مسؤوليات، ودون تعب في المشاركة في جمعه. وبالنسبة للشهادة فهي لون من حفظ الحق للمجني عليه والجاني، وماذا لو شهدت امرأة لابنها، وماذا لو شهدت على خصم؟ والجواب أغلب الظن أنها سوف تكون معه، وضد خصمه. ومن هنا اشترط أن تكون سيدتان مكان رجل، نظرا لعاطفة ا لمرأة. وهي ميزة فيها وليست عيبا، ويجرنا هذا إلى قوامة الرجل على المرأة، وهي حكم قرآني، يجب علينا بحكم الإيمان الانصياع له، والرجل بحكم تكوينه وتبعاته لا يتسرع في أغلب الأحيان لفض عروة النكاح، ولربما لو كانت المرأة هي القيم لزادت حالات الطلاق كثيرا عما هي عليه الآن.

ولكن ماذا يقول علماء الأحياء عن التغيرات التي تطرأ على المرأة أثناء تعرضها لأداء وظائفها العضوية والعاطفية. يقول السيد أبو الأعلى في الحجاب: أثبتت بحوث علم الأحياء اختلاف المرأة عن الرجل في الصورة الخارجية، وذرات الجسم، والجواهر البروتونية للخلايا النسيجية. وهما منذ كونهما جنينين تختلف صورتهما، وهيكل ا لمرأة ونظام جسمها يركبان تركيبا تستعد به للولادة والتربية.

ومع سنّ البلوغ يغروها المحيض، فتتأثر به جوارحها، وتطرأ عليها التغيرات التالية:

١ - تقل في جسمها قوة إمساك الحرارة، فيزداد خروج الحرارة منه، وتنخفض درجتها فيه.

٢ - يبطيء النبض، وينقص ضغط الدم، ويقل عدد خلاياه.

٣ - تصاب الغدد الصماء واللوزتان والغدد اللمفاوية أيضا بالتغير.

٤ - ينتقص الاستقلاب البروتيني.

٥ - يقل اخراج أملاح الفوسفات والكلوريد من الجسم، وينحط الاستقلاب الغازي.

٦ - يختل الهضم، ويقل التحام الشحم في المأكولات مع أجزاء الجسم.

٧ - تضعف قوة التنفس، وتصاب آلات النطق بتغيرات خاصة.

٨ - يبلد الحس، وتتكاسل الأعضاء.

٩ - وتتخلف الفطنة والذكاء وقوة تركيز الأفكار.

وهذه التغيرات تدني المرأة الصحيحية من حالة المرض إدناء يستحيل معه التمييز بين صحتها ومرضها، في كل مائة من النساء لا تحيض إلا ثلاثة وعشرون بلا وجع.

وقد بحثت حالات ثلاثين ألفا من النساء في عينات عشوائية فوجد أن ٤٧٪ منهن كن يقاسين الوجع أيام الدورة.

وقد كتب الطبيب إميل نووك - وهو عالم محقق في طب النساء - : إن ما يعهد في الحائض عامة من الأعراض هي: الصداع، والتعب، ووجع العظام، وضعف الأعصاب، وعصبية المزاج، واضطراب المثانة، وسوء الهضم، والإمساك أحيانا، والغثيان. وبعضهن يشعرن بوجع خفيف في صدورهن، وقد يشتد، أو تتورم الغدة الدرقية، وكثيرا ما يصبن بفتور الهضم، وتعب التنفس، ومثل هذا يقوله الطبيب كريجو، والطبيب جب هارد، الذي يزيد على ما سبق إصابتهن بقلة الرغبة في الطعام والشراسة والميل للبكاء.

وهذه التغيرات لا شك تؤثر في قواها الذهنية وفي سنة ١٩٠٩ استنتج الطبيب فواستشنسكي من مشاهداته الدقيقة أن المرأة تضمحل بها قوة الجهد العقلي والتركيز الفكري أيام الحيض. وأنها إذا كانت كمسارية أخطأت في قطع التذاكر، وإن كانت سائقة اضطربت في سياقتها، وإن كانت كاتبة على

الآلة الكاتبة أخطأت في الكتابة وأبطأت، وإن كانت قاضية تأثرت بحالتها، وإن كانت طبيبة أسنان لم تنشط في عملها، وإن كانت مغنية فقدت محاسن صوتها. صفوة القول: إن للدورة الشهرية أثرا ملموسا في المرأة، وقد ثبت أن كثيرا من حوادث الانتحار بين النساء تتم في أثناء الدورة، وكذا معظم الجرائم التي ترتكبها النساء.

وفي فترة الحمل يبقى مجموعها العصبي مختلا لشهور معدودة، ويضطرب اتزانها الذهني، وتصبح عرضة للمرض، مشوشة الفكر، وأصعب شهورها الشهر الأخير. ولذا لا ينبغي أبدا تكليفها بعمل عقلي، أو جهد بدني فيه، وقل مثل هذا عقب الوضع، وأثناء الرضاع، وحضانة الوليد[1].

شهادة العلم الحديث لشريعة الوجود :

من الآيات والدلائل على عظمة الإسلام : فيئة الناس إلى ما فيه، مما لا يناقض عقلا ولا فكرا ولا فطرة، إنهم في كل يوم يكتشفون أن الإسلام هو الشريعة التي قضي لها أن تحكم منذ الأزل، وحتى جددها الله سبحانه على يد محمد - صلى الله عليه وسلم -، وقد كان ختام النبوات بنبوته، على أن ذلك الوجود قد قضي عليه ألا تكون شريعة أخرى بعد شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - حاكمة له، ولذا يكتشف العلم فيما حرمه الإسلام مضاراً لمتعاطيه، ومصالح لمن يعافونه.

والإسلام روض النفس البشرية في أخذها بمنهجه، فلم يقهرها مرة واحدة، وإنما سار معها كما يسير المربي مع من يربيه، وما زال بها حتى سلس قيادها، ولانت له طبيعتها، واتبع في بعض الأشياء سياسة التدرج والمرحلية، في تخطيط أدى في النهاية إلى الوصول إلى التحريم، بعد أن لانت العرائك، واستيقظت الضمائر، وآثر المسلمون الآخرة على الأولى.

---

(١) الحجاب من ١٨٥ - ١٩٠ باختصار، مؤسسة الرسالة ١٩٧٨.

وبهذا يتحاشى الإسلام إثارة مشاكل يترتب عليها مفارقات بين التشريع ومن يشرع لهم، أو تمردا ممن يشرع لهم على التشريع. ومن ذلك:

الخمر :

داء وبيل، بلي به الناس منذ القدم، مع تحريم الشرائع له، وكما أشرت اتبع القرآن في طريقة تحريمه مراحل أربعا كانت كما يلي:

الأولى: في مكة يقول تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾(١).

فهنا وصف الرزق الحسن، ولم يصف السكر، فأعطى للقلب أن يقارن بين الحسن وغيره.

الثانية: في قوله تعالى بالمدينة: ﴿ * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾(٢).

وهنا وصف الإثم بأنه كبير، ولم يصف المنافع بأنها كذلك، مما يجعل المؤمن التقي ينتبه إلى مجافاة ذلك الإثم، فينبذ شرب الخمر.

الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾(٣).

وإذا علمنا أن الصلوات الخمس تأتي تباعا فمعنى هذا أن المسلم عليه تجنب الخمر، حتى يكون يقظا لوقت أداء الصلا، وفي هذا ما فيه من الحظر على شرب الخمر.

الرابعة: وتأتي المرحلة الرابعة - وهي التحريم النهائي - بعد أن تهيأت النفوس والعقول للقبول. فيقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾

(١) النحل : ٦٧.
(٢) البقرة : ٢١٩.
(٣) النساء : ٤٣.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[1]. فيكون الجواب: انتهينا ربنا. ولقد لعن رسول الله شاربيها، والمتجرين بها، وحامليها، وساقيها. في جملة أحاديث. منها: روى أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: لعن الله في الخمرة عشرة: عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقيها، وبائعها، وآكل ثمنها، والمشتري لها، والمشترى له[2].

وعن أبي هريرة أو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: لا يزني الزاني - حين يزني - وهو مؤمن، ولا يسرق السارق - حين يسرق - وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر - حين يشربها - وهو مؤمن[3].

وهي محرمة في المسيحية. وقد استفتت جماعة منع المسكرات بمصر رؤساء الديانة المسيحية فقالوا: إن الكتب الإلهية جميعها قضت بالابتعاد عن المسكرات. واستدل رئيس كنيسة سورية الأرثوذكسية على تحريمها بقول بولس في رسالته إلى أهل أفوس: ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة، ونهيه عن مخالطة السكير، وجزمه بأن السكيرين لا يرثون ملكوت السموات[4].

وإذا ما عدنا إلى ما أشرت إليه سلفا من أن سنة التدرج فيها دلالة على ملاءمة التشريع الإسلامي للوجود البشري، توجب علينا أن نقارن بين النجاح الهائل الذي حققه برنامج تحريم الخمر الذي وضعه القرآن، وبين فشل أمريكا الذريع في تحريم الخمر، الأمر الذي يجعلنا ننحني إجلالا للإسلام، والذي يشهد الناس جميعا بأن أبناءه أقل الأمم شربا للخمر.

---

(١) المائدة: ٩٠، ٩١.

(٢) رواه ابن ماجه والترمذي، واللفظ له. وقال: حديث غريب، وقال المنذري: ورواته ثقات.

(٣) متفق عليه.

(٤) فقه السنة: ج٩، ٩ ص ٣٦: ٣٧.

يقول الأستاذ مالك بن بين: ولعلنا لا ندرك قيمة هذا التدرج إلا بمقارنته بتشريع إنساني بعد ثلاثة عشر قرنا، أريد به تحريم الخمر في أرقى الأمم حضارة، وهي الولايات المتحدة، فحوالي ١٩١٨ ثارت مشكلة الخمر، وفي سنة ١٩١٩ أدخل في الدستور الامريكي التعديل الثامن عشر، وفي نفس السنة صدر حظر على الخمر، أطلق عليه قانون **(فولستد)** وأعد لتنفيذ هذا التحريم داخل أمريكا وسائل، هي:

١ - الأسطول أجمعه لمراقبة الشواطئ.

٢ - الطيران لمراقبة الجو.

٣ - المراقبة العلمية.

فماذا كان حل الموقف؟

فشل كامل لأمر الحظر، وسقوط فقرة التعديل الحادي والعشرين للدستور الذي صدقه عليه الكونغرس ١٩٣٣م.

وذلك هو الموجز التاريخي للمأساة التشريعية بأكملها، والتي يطلق عليها في أمريكا (عهد التحريم)، وفي ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها، والدين - على هذا - يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني قانونا خاصا بالفكر الذي يطوف في مدارات مختلفة[١].

ويضيف الشيخ أبو الحسن الندوي نقلا عن المودودي في نفس القضية ما يلي: استعملت كل وسائل الإعلام من مجلات وجرائد ومحاضرات وصور وسينما لتهجين شرب الخمر، وبيان مضارها، وأنفقت الدولة في سبيل ذلك ستين مليون دولار، ونشرت عشرة بلايين صفحة، وأنفقت خمسين ومائتي مليون جنيه، وأعدمت ثلثمائة نفس، وسجنت خمسا وثلاثين وثلاثمائة واثنتين

(١) الظاهرة القرآنية لمالك بن بني، ترجمة د/ عبد الصبور شاهين، ص ٢٨٢ بتصرف.

وثلاثين وخمسمائة ألف نفس، وفرضت غرامات قدرت بستين ومائة مليون، وصادرت أملاكا قدرت بأربعمائة مليون وأربعة ملايين، ولم يفلح هذا كله. وأخيرا سحبت الحكومة القانون[1].

وأخيرا: ما أضرار ذلك الشيء الذي حرم في الأديان، وأكد الإسلام حرمته، وهل يتفق تحريم الدين مع تحريم الطب، وقد قيل: إنها تجلب لشاربها السل، وتوهن بدنه، وتقلل مقاومته، وتؤثر في جميع أجهزة الجسد، وخاصة الكبد والجهاز العصبي، ولذا فهي من أهم أسباب الجنون والإجرام، والإفلاس، وضياع الأخلاق، وإشاعة الفوضى في المجتمع [2].

تحريم الخنازير :

عندما تقدم الطب ونشطت عمليات التحليل الكيماوي وقف العلماء على أسرار في تحريم الخنزير، ما كان القدماء من العلماء يعرفونها، وكانت ملاحظاتهم حول الخنزير قليلة، فمثلا يرى البعض أنه حرام حتى لا تنتقل عدوى طبعه في عدم غيرته على أنثاه إلى الآدميين، لأنه لا يغار على أنثاه، وهذا القول يصدق عليه وعلى غيره من الحيوانات التي لا تسير على نظام وحدة الزوجة، ولا يوجد اختصاص للأنثى المعينة بذكر معين، والبعض يرى أنه حرام لأنه حيوان مسخ بصورته قوم[3].

وهذا الكلام الذي ذكره الإمام الدهلوي يرد عليه من يذهبون إلى أن المسخ كان مسخ قلوب، ولم يكن مسخ خلقة، وإنما هو مثل ضربه الله، كما يقول عن اليهود: كمثل الحمار يحمل أسفارا.

وحتى من يذهبون - وهم الجمهور - إلى أن المسخ حقيقي، يقولون عن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم، إذ لا يحيون إلا ثلاثة أيام،

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم: ص ٨٠، نقلا عن تنقيحات للمودودي، ص سابعة ١٩٨٢ دار عمر بن الخطاب، القاهرة.

(٢) فقه السنة: جـ٩ ٣٧: ٣٩.

(٣) حجة الله البالغة: جـ٢ ص، ١٨٢.

ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل، ولم يشرب، ولم ينسل. ولهذا الرأي في فناء الممسوخات دليل قوي من السنة. عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن القردة والخنازير أهم مما مسخ الله؟ فقال: إن الله لم يهلك قوما - أو قال لم يمسخ قوما - فيجعل لهم نسلا ولا عقبا، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك. رواه مسلم[1].

وهكذا نرى أن من يذهبون إلى حرمته للمسخ في رأيهم تهافت.

وهناك من يرى أنه حرام: لأنه قذر، وأشهى غذاء له القاذورات والنجاسات، وهو ضار في جميع الأقاليم، ولا سيما الحارة. كما ثبت بالتجربة، وأكل لحمه من أسباب الدودة القتالة. ويقال: إن له تأثيرا في العفة[2].

ويبدو أن هناك تساؤلا هل إذا أطعمنا الخنزير طعاما طاهرا يكون حلالا؟ مع أن الفقهاء يرون أنه نجس العين، وأنه محرم كله: لحما وغير لحم. وهذا رأي الجمهور، والجواب أنه محرم لعينه، فمهما أطعم من طاهرات الأطعمة فإنه يبقى حراما كما هو، ولو لم تفهم الحكمة.

وقد بدأت الحكمة من تحريمه تظهر شيئا فشيئا، حتى ولو ربي في حظائر مكيفة الهواء. يقول الأستاذ وحيد الدين خان: ولقد حرم القرآن لحم الخنزير، ولم يعرف الإنسان في الماضي شيئا عن أسرار هذا التحريم، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب أمراضا كثيرة، لأنه يحتوي أكبر كمية من حمض البوليك، بين سائر الحيوانات على ظهر الأرض.

أما الحيوانات الأخرى غير الخنزير: فهي تفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول، وجسم الإنسان يفرز تسعين في المائة من هذه المادة بمساعدة الكليتين، ولكن الخنزير لا يتمكن من إخراج حمض البوليك إلا

---

(١) مختصر ابن كثير: جـ٣، ص ٧٣، ٥٣٠ بتصرف.

(٢) فقه السنة: جـ ١٣، ص ١٠٧.

بنسبة ٢٪، والكمية الباقية تصبح جزءا من لحمه، ولذلك يشكو من آلام المفاصل، والروماتيزم، وما إلى ذلك من الأمراض المماثلة[١].

ولعل هذا سر ما يوصف به من أنه بطيء الحركة، وأن رعاته يضربونه بشدة حتى يتحرك ويجري.

وهناك دراسة ذكرتها مجلة المجتمع على حلقتين حول لحم الخنزير والأمراض التي يسببها، بناء على دراسات قام بها أطباء في ألمانيا الغربية. وفيها يقول الكاتب:

ومنذ فترة طويلة عرف تأثير لحم الخنزير الضار على الصحة، وفي السنوات الأخيرة دخل البحث ميدان التجريب المخبري، بعد ملاحظة زيادة الأخطار الناجمة عما يسمى بسموم لحم الخنزير . . ويمكن القول: بأن أكثر اللحوم سمية هو لحم الخنزير، وقد حرم لخبثه، وللأمراض الناتجة عنه، وبخاصة في المناطق الحارة، وقد لوحظ في الشعوب التي تتناول لحم الخنزير في أوروبا وأميركا ازدياد أمراض السكر، وتصلب الشرايين، وارتفاع الضغيط . . . .إلخ.

ومنذ مدة طويلة عرف وجود الدودة الخنزيرية التي يصعب علاجها، وقد لوحظ في اثناء الحرب العالمية الثانية: أن الجنود الألمان في جيش روميل قد أصيبوا بتقرحات المناطق الحارة في الساقين، وهي تقرحات تنخر في الساقين، وفشل فيها كل علاج، بينما لوحظ أن المسلمين لم يصابوا بها، وبسرعة منع الألمان من لحم الخنزير، فشفيت القروح بسرعة وبصورة مدهشة.

وقد لاحظ الدكتور لايكينغ أن أكل لحم الخنزير يسبب الإسهالات والإنتانات المعوية. والتهاب المرارة وحصواتها.

وقد كان الألمان محميين من الأمراض السابقة، حين كانوا لا يتناولون

---

(١) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، ٢٢٣، ٢٢٤، ط أولى ١٩٧٠، دار البحوث العلمية.

لحم الخنزير، ومع الرفاهية وأكل لحم الخنزير كثرت تلك الأمراض، وازدادت نسبة الإصابة بالسرطان، خاصة سرطان المعدة. المجلة الأسبوعية لميونخ عام ١٩٥٢.

وقد أثبت الأطباء التأثير السمي للحم الخنزير على حيوانات التجارب التي أصيبت بالحركة، وبدت عليها الشراسة، وتعرضت للإصابة بالسرطانات الهضمية، كما ثبت أن حيوانات السيرك المغذاة بلحم الخنزير تصبح بدينة وخمولة، وتصاب بارتفاع الضغط والنزف من الأنف.

كما أدى إطعامه للأسماك في المزارع إلى موتها خلال أيام، وثبت أن شحومه أشد خطورة من جميع الشحوم الأخرى، وقد شهد بذلك أطباء من جنسيات مختلفة، كما ذكروا أن شحومه تحتوي على نسبة كبيرة من الكولسترول، وهو شديد اللزوجة، وسهل الالتصاق على بطانة الأوعية الدموية، كما أن حجم ذرات المواد الدسمة فيه يؤدي لتخريب الأوعية الدموية. فإن قيل فما الفرق بين لحمه ولحم الخروف؟ جاء الجواب: أن الشحوم في لحم الأغنام تختزن خارج الخلايا، وأما في الخنزير فتكون داخلها، فيسهل التخلص منها في الخروف، ويصعب في الخنزير.

كما أثبت الأطباء أن الذين يتغذون بلحم الخنزير تصبح الغضاريف والأربطة والمفاصل عندهم لينة لزجة، وتقل مقاومتها، كما ثبت احتواؤه على كميات كبيرة من الكبريت العضوي، مما يساعد على التخمر والتعفن.

وقد عرف هذا من الروا ئح الكريهة حين إجراء التجارب، حيث أكد التحليل تفوق رائحة لحم الخنزير على كل الروائح الكريهة، وسرعة تعفنه عن كل اللحوم الأخرى، يعرف ذلك من يسكن بجوار مزارع الخنازير، أو يمشي من جوارها.

كما أنه يحتوي نسبة كبيرة من هرمون النمو الذي يساعد على حدوث الالتهابات والبدانة. وهذا يؤدي إلى خلل في النمو، يساعد على السرطان، وهو شديد الخطر على مرض الذبحة الصدرية، ولذا يمنعون منه[١].

---

(١) مجلة المجتمع: العدد ٧٩٣، ٧٩٤، بقلم الدكتور: فرحان المسالمة.

وماذا نقول في القرن العشرين، وبعد أربعة عشر قرنا من هجرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ ماذا نقول عن السبق القرآني لكل الدراسات التي تكشف لنا عظمة شريعة الوجود يوما بعد يوم.

حرمة الذهب والحرير على الرجال:

هدف الإسلام من تعاليمه بناء رجال فيهم قوة الروح والعقل والجسم: زينتهم رجولتهم، وشرفهم تقواهم، لا تستذلهم الرفاهية، ولا تنهك أجسادهم النعومة، في خطوهم قوة تشعر بمضاء العزم والاستعداد للمعالي، لا يستمدون مكانتهم من النظر في الأعطاف والتجمل بما لا يعد جمالا في الرجال، ولذا حرم على الرجل أن يتشبه بالمرأة، فرجولة الرجل أعظم ما يعتز به، كما أن الترف عدو الأمم، وقد حذر منه القرآن والسنة، وعده من الطيبات المعجلة.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1] المؤمنون آية ٣٣.

ويقول: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ هود آية ١١٦.

كما أن الأمم بحاجة إلى الذهب في تنميتها الاقتصادية، فبدلا من أن يصبح حلية على صدور النساء، يصبح غطاء لعملاتها، أو مالا لخطط التنمية فيها، تستزرع به الأرض، وتبني به الصناعات، ويتقي به الذل للأجنبي، ولذا فإن أكثر أمم العالم تخلفا هي أكثر امم العالم تحلياً بالذهب، واقتناء له، ويبدو أن ذلك من باب تعويض النواقص في بعض الشخصيات.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: فتحريم الذهب جزء من برنامج

(١) الحلال والحرام: ص ٨٢، ط ١٣ - ١٩٨٠ المكتب الإسلامي.

الإسلام في حربه على الترف، وهناك اعتبار اقتصادي له وزنه كذلك، فإن الذهب هو الرصيد العالمي للنقد، فلا ينبغي استعماله في الأواني أو تحلي الرجال.

وقد رويت مجموعة من الأحاديث عن حرمة الذهب والفضة إذا كانت آنية وكذلك الحرير.

منها: روت أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم». متفق عليه.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى: أنهم كانوا عند حذيفة فاستقى فسقاه مجوسي، فلما وضع القدح في يده رماه به، وقال: لولا أني نهيته غير مرة ولا مرتين! كأنه يقول: لم أفعل هذا. ولكني سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: «لا تلبسوا الحرير، ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة». متفق عليه.

وروى أنس رضي الله عنه : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «من لبس الحرير في الدنيا فلن يلبسه في الآخرة». متفق عليه.

حرمة الربا :

أظهر النظام الربوي أنه نظام خبيث، وأن الواقع في أحابيله قلما ينجو منه، إذ تتوالد الديون وتتراكم، حتى لا يقدر المدين على سدادها، ولو باع نفسه، وأحيانا تباع دول بأكملها، لعدم وفائها بتسديد ديونها، وهو نظام يهودي خبيث، قصد منه السيطرة على سياسة العالم، إذ لم يقدر اليهود على السيطرة عليها حربيا، كما قصد منه جباية خيرات العالم لجيوب لا تعمل ولا تعرق، وإنما هي ذات قدرة خبيثة على إدارة مؤسساتها الربوية، وقد أعجبتني كلمات لأحد تجار الذهب، جلست اليه ذات مرة فاسترعى انتباهي محل مواجه له ليس فيه إلا مجموعة من الدفاتر فسألته ماذا يبيع هذا؟ فقال: إنه لا

يبيع ولا يشتري، وكل رأسماله في هذه الدفاتر. قلت: وكيف؟ قال: إنه محل للرهون والقروض، يكسب يوميا ألف جنيه مصري وكان ذلك سنة ١٩٦٥، فلننظر كم تساوي الألف جنيه الآن؟

ويصور الكاتب محمود السعدني في مقال له بالسياسة الكويتية يوم ٥/ ٣/ ١٩٨٧ في الصفحة الأخيرة أثر الربا قائلا: والبرازيل دولة صناعية ومصدرة، وهي تصنع السيارات بجميع أنواعها، والأسلحة والطائرات الحربية، والزوارق، والسفن، وتصدر الزجاج، والبن، والكاكاو، والأناناس، والأسماك، وبعض المعادن. ولكنها بالرغم من كل ذلك فقيرة ومديونة، وتبلغ ديونها حوالي ١٠٥ مليارات دولار.

وهي تدفع كل عام فوائد نحو مليار دولار أو أكثر، وهي بالقطع فوائد تفوق حجم الدين الأصلي، ومع ذلك فالبنوك الأميركية صاحبة الدين لا تقنع ولا ترحم، وهي تمسك بالبرازيل من خناقها، وتطبق على زمارة رقبتها، وتكاد تكتم أنفاسها، ولا تتركها، حتى تحصل على ديونها، وتكون البرازيل عندئذ جثة هامدة.

ولم يكن من المعقول استمرار مثل هذا الوضع الشاذ والغريب، شعب بأسره ينتج ويعرق ويكدح، ليعطي ناتج عمله كله لمجموعة من المرابين، جمعوا هذا المال في الأصل من استغلال الدول الفقيرة، ثم قاموا بإقراضها ليمتصوا دمها، ويخنقوا أنفاسها، ويدقوا عظامها في نهاية الأمر[١].

وقد نبه الإسلام إلى ما ينبه عليه الاقتصاديون المحدثون، من أن الربا يخرب اقتصاديات العشوب.

ويقول الإمام الدهلوي: الربا هو القرض على أن يؤدى إليه أكثر مما أخذ وأفضل، وهو سحت باطل. فإن عامة ا لمقترضين بهذا النوع المفاليس المضطرون، وكثيرا ما لا يجذون الوفاء عند الأجل، فيصير أضعافا مضاعفة،

---

(١) السياسة: ٥/ ٣/ ١٩٨٧، ص ٢٤ عمود ١.

لا يمكن التخلص منها أبدا، وهو مظنة لخصومات شديدة، وإذا جرى الرسم باستنماء المال بهذا الوجه أفضى إلى ترك الزراعات والصناعات التي هي أصول المطالب والعمران. ولا شيء في العقود أشد تدقيقا واعتناء بالقليل وخصومة من الربا[1].

ويضيف فضيلة الشيخ سيد سابق بعض النقاط إلى ما سبق، فيقول في أسباب تحريم الربا.

١ - إنه يقضي على روح التعاون الذي تدعو إليه الأديان.

٢ - يؤدي إلى خلق طبقة مترفة، لا تعمل شيئا، وتكثر في يدها الأموال بلا جهد، وتصير كالنباتات الطفيلية، تنمو على حساب غيرها. والإسلام يحض على العمل.

٣ - هو وسيلة للانتصار، ولذلك قيل: الاستعمار يسير وراء تاجر أو قسيس، ولا ننسى استعمار هولندا لأندونيسيا، وإنجلترا للهند، والأصل كان شركة الهند الشرقية.

٤ - الإسلام يحض على القرض الحسن بلا فائدة، لأن المال بنفسه لا ينمو، وإن كان ولابد من كسب ففي المضاربة سبيل إليه[2].

وأخيرا، فقد قصدت من وراء هذه الأمثلة في هذا الفصل أن أبين أن الإسلام هو دين الفطرة، وشريعة الوجود، وأن الناس كلما تقدموا كلما ظهر لهم من محاسنه ما يجعلهم يفيئون إليه، وأن واجب أبنائه أن يثبتوا للناس محاسنه، حتى يكون الناس على علم وبصيرة.

---

(١) حجة الله البالغة: جـ ٢، ص ١٠٦.

(٢) فقه السنة: جـ ١٢ ص ١٥٥، ١٥٦ بتصرف.

خاتمة :

في ختام هذه الجولة بين ربوع الفطرة على أنها الدين أو الخلقة نرى أن منطق الإقناع الإسلامي وهو يسمو على كل منطق - يتخذ للقلب البشرى كل طريق يفتح النور له، ليهتدي بهدي الله، سواء عن طريق العاطفة أم العقل، متخذا النفس والكون كتابا يعرف الله به، فالصنعة تدل على الصانع، والمخلوق يدل على الخالق، وقد رأينا أنه كلما ازداد العلم تقدما، كلما ازداد بالله معرفة، وانفسحت أمام البصائر الصور، واتسعت مساحة الرؤية للآيات والآلاء، وحق تقرير الله لنا بعد كل نعمة فبأي آلاء ربكما تكذبان.

وحقا هي مخلوقات متنوعة الشكل والطبع وطريقة الحياة. ومثلها نباتات وبحار وأنهار ووهاد. وكل يسبح بحمد بارئه ويسجد له.

يقول تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾[1].

فسبحان من خلق وشرع، وسوى وهدى.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الرعد: ٤.

المراجع

١ - الأحوال الشخصية في التشريع الإسلامي ـ د. أحمد الغندور ـ ط ثالثة ـ ١٩٨٥م ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت.

٢ - آدم - عليه السلام - ـ البهي الخولي ـ ط ثالثة ـ ١٩٧٤م ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة.

٣ - الأسفار المقدسة في الديانات السابقة للإسلام ـ د.علي عبد الواحد وافي ـ ط أولى ١٩٦٤م ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة.

٤ - الإسلام في عصر العلم ـ د.محمد أحمد الغمراوي ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة.

٥ - الإسلام والعقل ـ د. عبد الحليم محمود ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة.

٦ - الإسلام ومشكلات الحضارة ـ سيد قطب ـ ط أولى ـ ١٩٦٢م ـ الحلبي ـ القاهرة.

٧ - الإسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان ـ ط أولى ـ ١٩٧٠م ـ دار البحوث العلمية.

٨ - الإنسان ذلك المجهول ـ ألكسيس كاريل ـ ١٩٨١م ـ مكتبة المعارف ـ بيروت.

٩ - تأملات في المرأة والمجتمع ـ محمد المجذوب ـ دار الشروق ـ القاهرة.

١٠ - التحرير والتنوير ـ محمد الطاهر بن عاشور ـ ١٩٨٤م ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس.

١١ - الترغيب والترهيب ـ الحافظ المنذري ـ أوقاف مصر.

١٢ - التفسير الكبير ـ الفخر الرازي ـ دار الفكر ـ بيروت.

١٣ - تمييز الطيب من الخبيث ـ ابن الديبع الشيباني ـ ١٩٦٠م ـ مكتبة صبيح القاهرة

١٤ - الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٥ - جريدة السياسة الكويتية ٥/ ٣/ ١٩٨٧ـ

١٦ - الحجاب ـ أبو الأعلى المودودي ـ١٩٨٧م ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

١٧ - حجة الله البالغة - الإمام الدهلوي ـ دار إحياء التراث ـ القاهرة.

١٨ - حقوق الإنسان في الإسلام ـ د. علي عبد الواحد وافي ـ نهضة مصر ـ القاهرة.

١٩ - الحلال والحرام في الاسلام ـ د. يوسف القرضاوي ـ ط ١٣ـ ١٩٨٠م ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٢٠ - حياة الصحابة ـ محمد بن يوسف الكاندهلوي ـ دار النصر ـ القاهرة.

٢١ - الدعوة الإسلامية في العصر المكي ـ د. رؤوف شلبي ـ مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة.

٢٢ - الدين والعلم ـ المشير أحمد عزت ـ ٨٤٩١م ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة.

٢٣ - روح البيان ـ إسماعيل حقي البرسوي ـ دار إحياء التراث ـ بيروت.

٢٤ - روح المعاني ـ محمود شكري الآلوسي ـ ١٩٧٨م ـ دار الفكر ـ بيروت.

٢٥ - زاد المعاد ـ ابن القيم ـ ط سابعة ـ ١٩٨٥ م ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٢٦ - زبدة التفاسير ـ د. محمد الأشقر - ط أولى ـ أوقاف الكويت.

٢٧ - سر إيماني ـ محمد فؤاد الهاشمي.

٢٨ - سلوك الحيوان ـ أحمد حماد الحسيني ـ سلسلة كتب ثقافية ٤٨ـ القاهرة.

٢٩ - سيرة ابن هشام ـ ابن هشام ـ الحلبي ـ القاهره.

٣٠ - شبهات حول الاسلام ـ محمد قطب ـ ط ١٤ ـ ١٩٨١م ـ دار الشروق ـ القاهرة.

٣١ - صراع مع الميكروب ـ محمد رشدي الطوبي ـ دار القلم.

٣٢ - الظاهرة القرآنية ـ مالك بن نبي ـ ١٩٨١م ـ دار الفكر ـ بيروت.

٣٣ - العلم يدعو للإيمان ـ كريس موريسون ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة.

٣٤ - فجر الحياة ـ حـ.هـ.رش ـ ط أولى ـ ١٩٦٠م ـ عيسى الحلبي ـ القاهرة.

٣٥ - فقه السنة ـ سيد سابق ـ دار البيان ـ الكويت.

٣٦ - في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ ط خامسة ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣٧ - القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ـ موريس بوكاي ـ ١٩٨٢م ـ دار المعارف ـ القاهرة.

٣٨ - قصة الايمان ـ نديم الجسر ـ ط ثالثة ـ ١٩٦٩م ـ دار العربية ـ بيروت.

٣٩ - الله ـ عباس محمود العقاد ـ دار الهلال ـ القاهرة.

٤٠ - الله واحد أم ثالوث ـ محمد مجدي مرجان ـ دار النهضة ـ القاهرة.

٤١ - اللؤلؤ والمرجان ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ المطبعة العصرية ـ الكويت.

٤٢ - لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت.

٤٣ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ أبو الحسن الندوي ـ وهبة ـ القاهرة.

٤٤ - مجلة المجتمع ـ العددان ٧٩٣ - ٧٩٤ ـ تصدر بالكويت.

٤٥ - مجلة منار الإسلام ـ العدد ٩ ـ ١٩٨٦ م ـ تصدر في أبوظبي.

٤٦ - مجمع البيان ـ للطبرسي ـ مكتب الحياء ـ بيروت.

٤٧ - محاضرات في النصرانية - الشيخ محمد أبو زهرة ـ ط ثالثة ـ ١٩٦١م ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة.

٤٨ - مختصر تفسير ابن كثير ـ للصابوني ـ ط سابعة ـ ١٩٨١م ـ دار القرآن ـ بيروت.

٤٩ - المخططات التلمودية ـ أنور الجندي ـ دار الأنصار ـ بيروت.

٥٠ - مذكرات في الثقافة الإسلامية ـ مجموعة من الأساتذة ـ جامعة الكويت.

٥١ - منهج القرآن في التربية ـ محمد شديد ـ ط أولى ـ ١٩٧٧م ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٥٢ - نشأة الكويت ووحدة الخلق ـ محمد فتحي عوض الهل ـ سلسلة اقرأ ـ دار المعارف ـ القاهرة.

٥٣ - النكت والعيون ـ أبو الحسن البصري الماوردي ـ أوقاف الكويت.

٥٤ - نور اليقين ـ الشيخ محمد الخضري ـ ط سابعة ـ ١٩٣٥م ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة.

٥٥ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ـ ابن القيم ـ ط ثاني ـ ١٣٩٩هـ المكتبة القيمة ـ القاهرة.

٥٦ - وحدة الدين والفلسفة والعلم ـ محمد أبو الفيض المنوفي ـ دار العالم الإسلامي ـ القاهرة.